أذكرُ.. أني

نصوص سيريـة

د. رشيد هارون

٢٠١٣

مقدمة المؤسسة

الزمن الذي حكم فيه البعث هو جزء من أهم أجزاء الزمن في تاريخنا المعاصر... فهو يحمل بين طياته أوراق الظلم ووثائق الألم والجور وتقطر من صفحاته قطرات الدماء التي سالت بفعل المجرمين في حكومة بعث العراق...ذلك الماضي فيه تضحياتنا...وأصوات الأحرار الشهداء الذين دافعوا عن الإنسانية المعذبة في زمن الطغيان البعثي...وأنين الثاكلات لفقد الأبناء والأزواج والأشقاء ودموع الأيتام الذين علق آباءهم على اعواد المشانق...وابتسامات الأطفال الشهداء وبراءتهم حيث دفنوا مع ذويهم أحياءً في مقابر جماعية منتشرة على أرض العراق ...وحسرات الآباء على فلذات أكبادهم....فكم من أم قتل رضيعها في حجرها برصاص الغدر الصدامي ولم يتركها الجلادون بل راحوا يمطرونها بوابل من الرصاص لتسقط شهيدة فوق براءة الطفولة وجسد رضيعها الندي...وتطلق صرختها في سماء الحرية ...وكم من مشهد لا تستطيع الكلمات أن تصل إلى وصفه ...الزنازين وحبال الموت والقسوة الهمجية التي كان يمارسها أزلام النظام ألبعثي،لا يمكن لصاحب لب أن ينساها، وهكذاتستمر مؤسسة الشهداء في هذا المجهود وهو من صميم عملها كجهة رسمية راعية لحقوق الشهداء وذويهم وهي الجهة الرسمية الوحيدة لذلك وهذا العمل هو نشر سير الشهداء وتراثهم وقصصهم ومعاناة ذويهم وتوثيق جرائم البعث وحكومته الجائرة في تلك الفترة التي لا تنسى لأنها جزء مهم من تاريخ العراق المعاصر ،لكي يطلع العالم وتطلع الأجيال القادمةعلى هذا الجزء المهم من التاريخ الذي وقع فيه الظلم على شريحة واسعة من العراقيين ولكي لا تتكرر المأساة في المستقبل ونبني عراقاً آمناً يضم الجميع تحت خيمة الحرية.

وهذا الكتاب لواحد من ذوي الشهداء ترجم فيه معاناته ومشاهداته في زمن البعث، نصوص سيرية بأسلوب جميل وتحت عنوان (أذكر أني) والمؤسسة كما هو نهجها في تقديم الدعم المادي والمعنوي لذوي الشهداء تقوم بطباعة هذا الجهد لكاتبه الدكتور هارون رشيد.

تمهيـــــد

الذكريات كما نفهمها هي استرجاع تخيلي للحياة التي عاشها المرء في ماضيه القريب أو البعيد، تتداعى في ذهنه صوراً متعاقبة أو متناثرة تبعاً لما يعتري المرء في حينها من قلق أو هدوء، وذكريات الأديب مصدر مهم لإبداعه الأدبي، وقد يكون المدون منها واحداً من تآليفه الرائعة، غير أن ما يلفت الانتباه حقاً أن الشاعر يختلف عن غيره من الأدباء أو المثقفين في طريقة عرضه، إذ يقترب نصه كثيراً من توهج الشعر وعوالمه، مع ما يتضمنه هنا وهناك من المقاطع الشعرية الخالصة، هذا ما لمسته في كتاب (أذكر أني) لرشيد هارون الذي أكد لنا ما يتميز به الشاعر في هذا المجال.

لقد انبثق النص من تجربة حقيقية صادقة تنطوي على معاناة قهر وإعواز وحزن، ومواجهة يومية مع رموز النظام وممارساتهم الإرهابية ليل نهار. إن النص مع امتيازه الفني وثيقة حقيقية لما كان يعانيه شعبنا من إرهاب وتعذيب وقتل بلا حدود، وما كان يعانيه المربون المثقفون الأحرار من إفقار متعمد، ونفي، وتهميش، ومطارده، و إعانة، ومحاصرة خانقة.

إن تجربة الشاعر رشيد هارون كتب عليها القدر أن تكون نصاً ثرياً

مبدعاً يصور لنا بدقة ووضوح كفاح أديب متعفف مثقل بأعباء عائلة كبيرة، معتمداً ثقته بنفسه وقدراته المتعددة، متسلحاً بثقافته وموهبته وصبره الذي لا يمكن الثبات معه إلا ببكائه وحيداً مع نفسه، أو بالغناء وهو يشد من عزيمة جسده الناحل الضعيف، عبر الطرق الترابية في الريح وتحت الشمس أو المطر مع عدة عمله الثقيلة التي طالما نهشتها الكلاب وهو يدافع عن نفسه أمامها لتحوطه بعد ذلك، النظرات المتسائلة و زعيق الأطفال الساخرين، ونباح كلاب أخرى، لا يدري في أي مكان ستستقبله. لقد قدم رشيد هارون في نصه هذا صوراً للمآسي الإنسانية التي يعيشها الكثير في عالمنا هذا عند عتبات قرنه الجديد.

إن ما رأيته في النص يدفعني إلى أن اسأل منظري الأدب ونقده إلى أي جنس ينتمي؟ وما علاقته بما ينفثون علينا من مصطلحات الحداثة وما بعدها، عسى أن يجيبني أحد بعد قراءته لـ (أذكر أني) !

بقلم الشاعر ناهض الخياط

المقابر تتكلم

سمعتُ ذلك بأم عيـــــني

أنت الآن عدت من مقبرة جماعية، وشاهدت آلافاً من الجماجم، وشممت رائحة أخيك بعد اثني عشر عاماً من الإخفاء، الآن عرفت لِمَ كنت تكره المدنيين ذوي البزات العسكرية، الآن عرفت لم كنت تتوجس خيفة ممن يقف في آخر الشارع يتمايل خسة، لقد كانوا يسوقون الناس مكتوفين إلى المجهول

الجماجم معصوبة بعد اثني عشر عاماً

اليدان مكتوفتان

لقد كانت تحرسنا الذئاب.
أرغمني الاضطهاد على عدم قراءة الوجوه التي تحيط بنا بفطنة وحكمة، أحقا ما ترى؟ لقد توقفت ساعة يد آخي عند الساعة الخامسة بتاريخ الخامس والعشرين من آذار، إنها الخامسة والخامسة والعشرون
دوائر من التاريخ
دوائر من الحبال
دوائر من الذئاب
لقد خذلتك عدتك اليوم
فقد عاد من عاد بعظام أخيه
أو بساقه الاصطناعية التي تميزه
أو بهويته التي كتب لها النجاة من الإبادة
وعدت مخذولاً، لا تدري ما تجيب أمك
أبوك الذي جاوز السبعين لا يسألك عن أخيك
فهو قد أعفاه الهرم من إمكانية السؤال
هو الآن لا يفرق بين أبنائه
وينادي الحاضرين باسم الغائب !

أجهزت الأيام الثلاثة الماضية على دمع أمك، فهي تنظر حزينة دونما بكاء! أتنقل من جمجة صغيرة إلى أخرى كبيرة , ومن منظر فائق لحدود المعقول إلى آخر. دعني احكي لك حادثة لكي اربط بين ما رأيت اليوم في المقبرة الجماعية وبين مواقف حدثت لي في القرى
إذ لابد أن أصل الألم بالألم

والغريب من المواقف بالغريب.

أذكر أني كنت أجوب إحدى قرى الكوفة وكنت أسير مع الشارع الذي يحاذي نهرها، وكنت أنادى للتعريف بمهنتي، وليس غيري وابني والنخيل وبيوت متناثرة، لقد كان ثمة رجل طويل القامة ممتلئ الجسم عظيم الرأس والأنف، واسع الفم، كان يملأ المساحة التي يمشي عليها ويقلقها، عندما اقتربت المسافة بيننا، عبر الشارع وأمطرنا شتماً وبصاقاً على نحو لا أتوقعه- أنا الذي كنت احرص على إكمال عدتي واحسب لكل ما يمكن أن يطرأ حسابه —

لقد كان ابني يختفي بي مذهولاً

وكنت لا ادري بم اختفي

وقفت أمامه غير مبتسم وغير باك

لقد كانت عيناه تستعر وتقدح، بيد أنها أخذت تتروض كلما ترطبت عيناي بالدمع، وكما فاجأني بانقضاضه علينا, فاجأني ببرودة أعصابه

لقد ثار فجأة وهدأ فجأة

بقيت واقفاً وبقي

كان يرمي بكلامه على عواهنه واذكر مما قال:

لا تصح

لا تبصق في وجهه

لا تحرك الوسطى من أصابعك أمامه

سيقطع لسانك

ويقص شفتيك

ويبتر إصبعك !
لقد قلت له لا تفعل فلم يسمعني
فمات مات.
أنا لم اخبر أحداً وإياك أن تخبر أحداً حتى من أهله
فستموت
فانا حذرتك وإلا فأنت رأيت كيف..
يا الله أعطني فلوسك وسجائرك وساعتك، ورح لأهلك.. يا الله..

لقد أخذ الرجل جسمه الكبير برأسه وانفه ومضى دون أن يأخذ مني شيئاً أذكر أنه حقاً لا يريد أن يأخذ مني شيئاً، فجمله التي طلب بها المال والسجائر والساعة لم تتضمن نبرة أمرية. حين عدنا إلى البيت قص ابني على أمه وأخوته ما كان , وقد أيدته بهزة رأس. ولم أزد. لكنني بقيت أدور الموقف في رأسي واقلبه ولم أصل إلى نتيجة حاسمة قبل وقوفي على المقبرة الجماعية.

المشهد إجرامي يعج بالبشاعة بعد اثني عشر عاماً فكيف من رآه في حينه، ألم اقل لك كانت تحرسنا الذئاب.

أذكر أني كنت ألاحظ أعداداً هائلة من الناس تختفي اختفاء الملح في الماء, وأذكر أن ذويهم يُسْتَدْعَون للتحقيق، لماذا اختفى ؟ كيف اختفى ؟ وكأن من أخفاهم لا يعلم شيئاً عنهم، في المقبرة الجماعية وجدت كثيراً منهم، في المقبرة الجماعية ترى ما يجعلك تدور برأسك يميناً وشمالاً مبهوتاً : ثلاثة رجال
سمر البشرة

يرتدون عقالاً
جمعوا أخاهم، ووضعوه في كيس،
وانتبذوا مكاناً وأخذوا يبكوه
فوقفت أبكي أخي وابكيهم
لقد بكوا بكاء الثكالى
تذكر أن القرويين أقوياء لا يبكون بسهولة – لقد انتبهت محطات العالم لهذا المشهد
وجاء إليهم مراسلوها يصورونهم
الكاميرات لا تبكي إنها تبحث عن المشاهد الغريبة التي لم تلتقطها من قبل

ثمة امرأة عجوز عثرت على ابنها وكانت قد اصطحبت ابنه إلى المقبرة، الجدة لم تبك، لقد كانت صابرة قوية بشكل غريب، بيد أن الصغير كان يبكي ويقول لجدته : لقد قلت لي : إن أبي مسجون، ظل يردد هذه الجملة حتى ابتعد عني، قميص الصغير هذا فضفاض وأردانه واسعة، أظن انه يرتدي قميص أبيه بعد أن أجريت عليه التعديلات. كانت دموعه تنهمر بشكل غريب، وكان يمسحها برداء قميصه،
الجدة تمسكه بشمالها
وتحمل ابنها في كيس من النايلون بيمينها

هي تتوسط الابن والحفيد
وتسير كالقائد الظافر
امرأة تحمل كل مواصفات الجلادة والصبر، والتحكم بالدمع، إذا نظرت إليها ستبدو أنها تحمل في هذا الكيس ديناميتاً تمضي به إليهم.
كانت إحداهن تصنف العظام
التي اختلطت بالعظام والجماجم
التي اختلطت بالجماجم وتقول : أنا أمك.. قل أنا هنا.. ألا تسمعني..
تردد هذه الكلمات وهي منقطعة تمام الانقطاع عما حولها.

كان أحد الشيوخ، وقد شاهدته قبل خمسة أيام – اليوم الثاني لفتح المقبرة الجماعية في الحلة– وقد تطوع لانتشال الجثث من حلق الحفارة،

كان قبل خمسة أيام اقل جلداً، ويبكي لما يرى من مناظر، اليوم لا يبكي، يسحب الجثة من حلق الحفارة ويضمها إلى صدره،
وإنما يفعل ذلك
ليجعلك ترى هيأة أخيك أو أبيك للمرة الأخيرة
وهو بعد ذلك ما إن يضع الجثة على الأرض
حتى تفقد تماسكها وتتناهى إلى أجزاء.

عثر على ثلاث نساء، ثلاث عباءات ثلاثة أكوام من الشعر الطويل، ثلاثة (دشاديش) ملونة أحداهن حمراء بوضوح. اخرج من جيب جثة صغيرة، ممحاة ومبراة وضعها على راحة يده وعرضها متمتماً...

علقت عباءة إحدى النسوة الباحثات بعظم، سحبت عباءتها من العظم ودارت في المقبرة – إن الدورة قد تأخذ منك ساعة – لقد علق العظم نفسه بالعباءة نفسها في الدورة الثانية، خلصت عباءتها وراحت تفتش، فعلها العظم للمرة الثالثة.

قالت المرأة لأحدهم :

« اقرالي الاسم الذي على هذا الكيس « قال هو فلان، صاحت المرأة انه ابني، لقد كان يتشبث بي فلم انتبه! لابد أن ننتبه ليكون بوسعنا أن نميز بين نباح ونباح وحديث وحديث
وعظم وعظم !

* * * * *

عيون تصوّب
وعيناك معصوبتان
أخي
يداك مكتوفتان
فماذا صنعت حين داهمك الرصاص ؟
رصاص
وقتلى
وسرٌ دفين
أخي
تكلمت المقابر
هل أكف عن البكاء ؟

علامات تعجب في الطريق إلى المدينة

* الإنسان وحده
تحت وطأة
أصعب الظروف
يمتلك حرية الاختيار

أذكر أني فكرت بالجنون وسعيت إليه سعياً، أرجو أنك فكرت به مثلي.
لك أن تتصوريني مجنوناً أمشي على طول قامتي ؟ أقول ما أشاء بملء حريتي وأعترض على مالا يتفق وقناعتي.
أشتم من يستحق الشتم
وأهزأ بمن يستحق الهزأ
لك أن تتصوريني افني النهار ضحكاً وشتماً وهزءاً.
المجانين ليسوا أغبياء
ولو كانوا كذلك لما جُنُّوا
لان الشارع لي أنا المجنون
ولك الأرصفة والأحياء المظلمة
أنا اضحك بملأ إرادتي

أطلق صوتي لمداه
وأنت تخاف ذلك
أنت إن لم تفكر بالجنون
سأتألم لك
وأقول : أنك لا تشبهك
فان ما كان
يدفع إليه ويبعث على التفكير به
لابد أن تجد لك وسيلة تهزأ بها ممن يحسبك مغفلاً
وتشتم بها من يحسب نفسه لا يشتم !!

أذكر أني كنت عندما أذهب إلى مركز المدينة يطلب مني ذوو بزات عسكرية هويتي
ويحدقون بها وبي
ولا مناص من أن يحدقوا بك ذهاباً وإياباً.

أذكر أن أحدهم كان يدخن بينما صعد إلى السيارة من يحدق في الوجوه ويطلب الهويات
فانهال عليه شتما وإهانة أمام النسوة
ألم اقل لك ؟
لو كنت مجنوناً كان بوسعك أن تدخل دون أن تهان
على الإنسان في المدينة أن لا يرفع رأسه ليرى ما يجري
عليه أن لا يشعر من يأخذ الدية على المسير في الشارع بأنه يراه
وقد كثر الجباة في المدن

ففي الطريق جباة
وفي دار العدالة جباة
وفي دار الجباية جباة رسميون وغير رسميين.
أذكر أني كنت حين أُرزق بوليد يجبى مني
وحين يمرض أو أمرض يجبى منا
حين يطلبك القانون لخدمة العلم يجبى منك
وحين تسرح يجبى لتسريحك.
وحين تهرب يجبى لهروبك
الجباة يكبرونني أحيانا وأحيانا أكبرهم
من جنسي حيناً
ومن جنس آخر حينا
عليك أن تدفع، وإذا كان ذلك يشعرك بالخجل أمام نفسك
فعليك أن تبحث عن وسيط يوصل ما يودون جبايته منك
جباة صغار
جباة كبار بينهما جباة
وأنت إن لم تفكر بالجنون على صعيد الأيام القادمة سيكون ألمك
ودمعك مضاعفاً.
كان الجباة أذكياء
ولهم طرقهم التي يحيلون بها دارك إلى قاعة يرن فيها الصوت
وإذا دفعت إلى الجباة الرسميين واستلمت براءة ذمتك

طالبك جاب آخر بصحة صدورها
فلهويتك ولدفتر خدمتك صحة صدور
ولتسريحك من الجيش صحة تسريح
ولتخرجك من الجامعة صحة تخرج..و..و..و.
أن تجن ستطالب مرة واحدة بصحة جنون
وسيختصر عليك الجنون كثيرا من العناء
وسيجنبك الكثير من الأيدي التي تجبي
ومن العيون التي تحدق
أذكر أني كنت أراهم كيف يسخرون الناس مجاناً
ويسلبون بعض أشيائهم عنوة، فإن تعمل سائقاً أخذوا سيارتك سخرة
وإن كنت مزاحاً سخروا مزاحك ليفك عقدهم
وإن كنت تاجراً اخذوا منك ثمن اللافتات التي تحمل شعاراتهم
ومن.. و من،.. ومن، ومن..
لابد أن تختار الطريق الذي يفضي بك إليك وإن كان الجنون.. !!

بداية الرحلة ورؤيا المطاولة
أو
اسقط مخذولاً
ولا خاذلاً

* ألا يستحي
هذا الرجل
يحمل عدة سفرية
وجريدة ؟

أذكر أن العراق اتبع سياسة اقتصادية رأسمالية ابّان انحلال الاتحاد السوفيتي وبشكل مفاجئ، ولاحظ من عاش فترة بداية العقد التسعيني من الألفية الثانية، إن النظام باع أعداداً هائلة من وسائط النقل الحكومية، وأهل الحكومي من القطاعات.

وبعد انتفاضة ١٩٩١ ألغى النظام دعم المواطن والمؤسسات التي تقدم له الخدمات. وصار لزاماً على المواطن العراقي أن يواجه السوق الذي يغلي إلى درجة صار فيها راتب الموظف لا يعيل أسرة لأكثر من يوم واحد، أما راتب المتقاعد فلا يساوي أجرة السيارة التي توصله إلى المصرف لاستلام راتبه التقاعدي المزعوم. فاتجه الموظف – نتيجة

لذلك – إلى العمل في القطاع الخاص بعد الدوام، وراجت في السنوات التي توسطت العقد التسعيني عملية الامتهان على الأرصفة.

أذكر أني عندما حاصرني النظام بالجوع، عزمت — مضطراً – على نسيان صفتي الوظيفية، لأذعن للواقع، وأعمل سواء بسواء مع من ترك تعليمه الابتدائي — كانت المدارس تغض الطرف عن التشديد على تطبيق ما يسمى بالتعليم الإلزامي– وإذا كان لابد لكل شيء من بداية، فإن رحلتي مع الألم والعمل مصلحاً جوالاً للطباخات الغازية، كانت قرية الصفرة، إحدى قرى الحلة وتقع في الجنوب الشرقي منها، كان احدهم قد جاء إلى أخي الذي كنت اعمل معه وطلب منه أن يصحبه إلى هناك لإصلاح طباخه، فرافقته، وما أن أنجزنا له ما أراد حتى دعانا جاره للقيام بالمهمة نفسها، عندها قلت : لماذا لا أهيئ عدة سفرية وأجوب القرى؟ — أنا الذي أعرف المصلحة ولا محل لي للعمل – في اليوم التالي كنت في قرية الصفرة نفسها.

أذكر أني كنت أنادي للتعريف بمهنتي — تصليح الطباخات – بعيداً عن البيوت، كنت أحاول أن أروض صوتي ليطاوعني، ففي حينها بدا مبحوحاً، كما لو كنت أقف أمام محقق أمني. كنت حينها لم أتمكن بعد من السيطرة على صوتي — أنا الذي يجيد الطبقات العالية في الغناء — ولم أتمكن بعد من معرفة طرق التعامل مع الكلاب

والتمييز بين صنوفها

فكان ثمة من يحذرني : إلى أين وأنت بلا عصا ؟

كانت البداية شديدة الوطأة على نفسي فهي الغربة والاغتراب ذاتهما !

أذكر أني كنت ألح في الذهاب إلى قرية الصفرة، لأقنعها بأني مصلح جوال
واقنع نفسي وصوتي

أذكر أني كنت احسب أن قرية الصفرة وحدها من تأتي وسائط نقلها من المدينة، محملة بالثلج وأكياس الحصة التموينية التي تشغل الممر وبعض المقاعد، وعليك أن لا تظهر تبرَّمك حين تنتظر السيارة أحداً لم يخرج من داره بعد، ولم ينته من وضع (الباميا) في الأكياس، عليك أن تنتظر حتى ينتهي من أمره بينما تستمع إلى قصة من أحد الركاب وهو يعمر سيجارته.

تتجه السيارات من القرى إلى علوة الخضار، فليس بوسع الفلاح أن يبيع محصوله دون أن يتقاضى (المتعهد) حصته، وإن حصل غير ذلك فإنما يحصل خلسةً.

أذكر أن النظام فرض على الفلاح تمويل (السايلوات) بعدد محدد من أطنان الحنطة، حسب مساحة الأرض الزراعية التي بحوزته، وكان الفلاح يعمل ما بوسعه كي يفي بالحصة المقررة، وإلا فعليه أن يبيع مواشيه أو أولاده ليشتري ما يسد النقص، وليس من مناص من ذلك غير السجن أو الغرامات المالية، أذكر أني سمعت غير فلاح يقول : لم أرَ القضاء ولا مركز المحافظة منذ أشهر خشية أن يقبض عليَّ ! لقد خذلت القرى، خاصة في نسبة ما يصلها من ماء، كما خذل الموظف براتبه.

أذكر أني كنت أقول في الليل مع نفسي : إن القرى كثيرة وسأظل

أمشي من قرية لأخرى حتى أصلح ما يعيل ليوم. نعم لقد خذلت، فلا يجب أن أخذل عيالي، وان كان لابدّ من ذلك تحت وطأة الظروف التي يعرفها كل عراقي ومنهم أسرتي، فلا بد من المطاولة ما استطعت حتى اسقط صريعاً بأبوتي، أسقط (مغدوراً)، ومعذوراً، لئلا أشعر بالإنكسار أمام نفسي، وذاك مالا أرضاه لي، ولها !!

إذا انفعلت اختفيت

* لا أدري
من كان يهتف لي
إن أسلك هذا الطريق

ودع ذاك
وما هو يقين عندي
إني كنتُ أسمع ذلك الهتاف

أذكر أني حين كنت أعود من القرى أواجه منظراً يومياً عند باب المدرسة في آخر الشارع من بيتي، بزات عسكرية يلبسها مدنيون، لا ادري ينتظرون مَنْ، ولا ادري لم يفتعلون الفرح على وجوههم حين يسمعون الأغاني التي يسمونها وطنية، لقد كنت أتقزز لهذا، وأذكر أني كنت أقول في نفسي إنهم يسخرون مني ومن هم على شاكلتي في

الحصول على الرزق !

هؤلاء موجودون في النهار حتى آخر الليل، موجودون في الأعياد والمناسبات الدينية، بجملة واحدة إنهم دائماً عند باب المدرسة , وأنت إذا غيرت الطريق التي تفضي بك إلى البيت، تراهم أمامك من خلال مكبرات الصوت.

كنت لا أفرق بين نباح كلاب القرى ومكبرات أصواتهم، واعترف أن ثمة كلاباً تشدني لنباحها إلا هم، ويمكنك أن تسمعهم في بيتك وفي أية زاوية منه. المناسبات كثيرة والصوت جدا عال، وليس بوسعك أن تتخلى عن أذنيك أو بيتك.

أذكر أني كنت أقول : إن هؤلاء يتآمرون عليّ، فهم يريدونني أن اجن، فعليك أن تشاركهم نصرهم المفترض، سواء أوجدت رزقك في القرى أم لم تجده، سواء أكنت محزوناً مهموماً مفقوراً أم لم تكن ! كنت اشعر أن ثمة فرحاً زائداً عن الحاجة وتمايلاً في المشي لا مسوغ له، وكنت اسأل يغيضون من بمشيهم، ويناغون من بألبستهم الملتصقة في الجسد المتمايل ؟

لعلّها مشكلتي، ولعلها مشكلة سمعي ونظري، ولكن يحق لي أن أسجل ما اشعر به، فهو لمن الجبن أن يتآمر الإنسان على نفسه فيزيدها قرفاً ونشازاً وجنوناً. لابد أن تشاركهم بؤسهم، فأنت إن قلت : عيالي، قالوا : نحن نتعهدهم، وإن قلت صحتي وهزال جسمي : قالوا لعدم إيمانك، وأذكر أنهم تعهدوا أطفالنا بإفقارهم المدروس، وتعهدوا صحتنا بوسائلهم النفسية. أذكر أني قلت :

أحدنا على خطأ !

هم إذا حدثوك بدا على حديثهم الكذبُ والفراغُ من المعنى، وسوء الابتداء والانتهاء، وهم يريدونك أن تسمعهم وإن كنت تعرف ما سيقولون : واحدهم عطشان لأن تقف بين يديه، يحقق معك، ولك الخيار إما أن تقف غير وقفة بين يديه وبين يدي (سواه) من المحققين، وإما أن تقف عند باب المدرسة تهدر وقتك وتبيد ذوقك، وتمسخ كيانك، والموقفان سيان في كليهما أنت الخاسر. إذن فكر بالجنون !!.

أذكر أني وقفت بين يدي غير واحد منهم، هل وقفت هذا الموقف ؟ لقد كنت استنفر ثقافتي وعوزي وسمعي لان يرد عليهم

كان الجسم الناحل هذا يستحيل راجمة

يقصفهم مسترخياً هادئاً

فقد كنت أعرف

أنني إذا انفعلت اختفيت !

كنت أحس بانهزامهم أمامي، فكانوا ينسقون الأكاذيب ليعذروني وليدعوني مرة أخرى إلى بؤسهم، وأنت إن تخليت عن ذوقك وحقيقة ما ترى فيك وفي جارك من فاقة واضطهاد، وأنت العراقي بخبراته وغناه، ستنساق وتستحيل إلى واحد منهم لا يسمع ولا يرى ولا يحسُّ.

هم يستحقون الإدانة وبوسعي أن اشتم، فأنا مكلوم، لكنني لا أحب أن اشتم أحداً فقد قلت هذا، لكنني أود أن اكتب ما يخالجني، فقد كانوا يقصدونني في أمني وصحتي وذوقي ورزقي، وأنا لا اقصد إلا

الكتابة، لكنني لا افترض أنهم يستحون من... أو يتألمون لكتابتي، فقد كانوا لا يتألمون لي ولنا مجتمعين, أنا لا أكتب لهم اليوم، أكتب لي و لك ولمن لا يشبههم لباساً وذوقاً وفرحاً زائفاً وتمايلاً كاذباً !.

أذكر أني كنت اقرأ انهزامهم أمامي. لقد تأكد لي بأني ندهم كانوا ينتظرونني آخر أيامهم على مضض، ويحسبون تحديقي بهم سخرية، إني لم اسمعهم رداً نابياً، وهم يلوذون بأسيجة الدور ليرتدوا (دشاديشهم) كيما يخفوا بزاتهم العسكرية. ولقد كنت اسأل ينتظرون منْ بلباسهم هذا؟ وأسلحتهم الخفيفة التي تزيدهم تمايلاً وزهواً كاذباً، لقد أيقنت تماماً بأنهم كانوا ينتظروني وينتظرون من سدّ عليهم إمكانية أن يخفوه أو يعذبوه أو يريقون كرامته ! وبما أن الجميع التزم موقف (المراقب)، فقد انسحبوا مخذولين، أذكر أني قلت في نفسي لقد هزمتهم بعدتي السفرية هذه، وها أنا ذا باق أشفق عليهم , وهم يتوشحون بالذل.

المدرسة في آخر الشارع عادت مدرسة، لم يبق ما يشوهها سوى أكياس الرمل التي كانوا من المفترض أن يحتموا بها مني، لقد قلت لهم إن الحقيقة لا يجليها العراك والمشي المتمايل، فلم يصدقوني، لقد قلت لهم اتركوني لعدتي السفرية ولكتابتي فلم يفعلوا، غير أني اصطليتهم بنار ما أذكر من مواقفهم !

إن الطريق الصحيح
يوصلك آمناً مطمئناً إلى باب الدار
وها أنا أكتب تحت شمس النهار وهم يختبئون في الجحور !

أذكر أني كنت عندما أجوب القرى مصلِّحاً جوالاً للطباخات، أخلع ما يمكن أن يذكرني بصفتي الوظيفية – بوصفي موظفاً وإنساناً يتحسس بما يجري حوله ويتألم له، كان علي أن أنسى ذلك
و علي أن لا أنادي للتعريف بمهنتي
حتى ينتهي بائع الغاز من القرع على اسطوانة الغاز بآلته الحديدية
وعليّ أن لا أنادي حتى ينتهي الصغير الذي يحمل حافظة الموطا من صياحه الذي يستأنس به وينغمه
ليس هذا وحسب
علي أن انتظر حتى تنتهي بعض الحمير من نهيقها
وأنت تدري أنها إذا نهقت
نهقت جماعات
عليّ أن لا أنادي حتى ابتعد عن المولدات التي نصبت لتسحب بعض ما تبقى من الماء في جوف الحفر المالحة
وعلي حين أنادي
أن أضع يدي لأدفع صوتي باتجاه البيوت
حين تجوب القرى عليك أن تنسى كل شيء إلا ألمك الذي سببته لك حماقات الرئيس .
عليك إن لم تحصل على رزقك أن تجلس تحت ظل شجرة أو جدار, وأن تواصل بعد ذلك حتى تجد ما يعيل، وما لا يفسد عليك أبوتك أمام أطفالك ورجولتك أمام زوجك ! وإذا كان ثمة ألم ألحقته بك القرى فعليك أن تتركه عند آخر خطوة قبل أن تصعد السيارة المكشوفة أو

السيارة التي تجمع بين أكياس (الباميا) والناس، عائداً إلى البيت.

أذكر أني كنت أقول : إن القرى تؤذيك دون أن تدري

وإن من في المدن يؤذيك بدراية، ولابد أن تميز بين هذا وذاك

عليك أن تميز بين هزل الأطفال الذين يرمونك بالحجارة ويرددون ما تقول حين تنادي، ويصفقون وهم يتبعونك حتى يملوا

وبين من يحاصرك دون مسوغ

عليك أن تعذر الحمير لنهيقها

وبائعي اسطوانات الغاز لطرقهم

والأطفال لمرحهم وهزلهم

وتسجل لسواهم لصوصيتهم وتقاريرهم السرية

وتمايلهم المتحرش

فأنت كثر ما سمعت من القرى ما يسر

وأكلت من بيوتها ما طاب

واتيت برزقك منها

أما المدينة

فلطالما أغاظتك وهزئت منك

وعكرت طريقك الذي يفضي بك إلى البيت

المدينة متمثلة بالمدرسة في آخر الشارع

التي يطوقها المدنيون ذوو البزات العسكرية

كانت تدفعك إلى الكارثة وسواد الوجه و إلى سخرية و تعليق المارة

إن كنت لا تستطيع أن تطوي القرى منادياً تصلح ما يمكن أن تصلح

وتتجاوز ما يمكن أن يستجد من لعب ومزاح وسخرية غير مقصودة
فعليك أن تصطف مع من يصطف في باب المدرسة
وتتمايل كما يتمايلون
وترهب كما يرهبون
وتقض مضجع من نام
كلا الموقفين ممكن
عليك أن تختار الموقف الذي لا يجلب لك الهزأ ولا يجلب لك الذل والعار أبداً ! فكر بال.....

أذكر أني كنت أراهن في داخلي عليَّ
وكنت أزداد امتلاءً وطولاً كلما شاكسوني
وكلما ازدادت مكبرات الصوت هراء
وأذكر أني قلت في نفسي
إنني اعرفني جيداً
فيجب أن لا اخذلني
فليس لي إلا أنا

وكنت عندما أعود من القرى أقص على أسرتي أو يقص عليها ابني الذي يرافقني ما نتعرض له من سب أورمي بالحجارة لغرض اللهو، كانوا يتأملون بي وينهوني عن الذهاب مرة أخرى. غير إني كنت اعذرهم فهم لا يعرفون، ما اعرف، ولا يعانون من المدن والمدارس التي استحالت إلى ثكنات عسكرية ما أعاني، أذكر أني كنت عندما أقرأ ما أكتب

الساعة يسمعونني، بإصغاء بهي ولهفة رائعة وكأنهم صاروا مثلي يكرهون أصحاب البزات العسكرية، ويعشقون القرى ولهوها البريء ولحظات التفكير بالجنون!

إن القرى طيبة وجميلة
أنا الآن اذكر لهو أطفالها البريء ليس إلا
والمدارس جميلة
ولا أحب أن أراها معقلاً للمكر والاضطهاد
وأنت معي تحب أن ترى المدارس مدارساً
والأطفال فيها أطفالاً، لا يمسهم ما قد يمسهم من سوء المنظر ونشاز الصوت وتفاهة التمايل.

أخذوهم... أخذوه !

* من يقطع لسانه
قد يستطيع في النهاية
من الإشارة إلى الخطأ

لم انتبه إلى أن أحداً من أقاربي قد تحدث في السياسة، مع أنني أثق بفطنتي، فأتذكر أحداثاً من طفولتي يعجب أهلي حين اذكرها لهم، كنت أظن أن الأمور تمشي هكذا دون رئيس أو مرؤوس، ويبدو لي الآن أنني كنت لا أميز بين مدير ومعاون ومعلم، مع أنني اسمي

هذا معلماً وذاك مديراً !

أذكر أن قريباً لنا زارنا ذات مساء عام ١٩٧٢ وأخذ يتحدث مع عمي وأبي عما يسمى نفطاً وعن ما يسمى حقاً لكل فرد عراقي في هذا النفط، عجبت حينها، وسخر أبي وعجب، فيما خاض عمي – المعلم – مع قريبه حديثاً طويلاً، انتبهت إلى عدم رضاه عن شيء ما، لم استطع تشخيصه وقتذاك وأستطيع الربط الآن بين خوضه في السياسة وعدم رضاه ذاك وبين تحويله موظفاً، بعد أن اعتقل، وعاد بعد أشهر ليباشر في وظيفته الجديدة، حين سأله جدي قال : أنا لا أحب السياسة ولأنني لا أريد أن انتظم في (أي حزب) حصل لي ما حصل ! إن أكثر المواقف التي أتذكر هي مما وقعت لأشخاص أثَّروا بي.

أذكر أني كنت احد طلاب الثالث المتوسط، وكان قد شاع جو من الاستعداد أو الرهبة لان مفتشاً قد حضر إلى المدرسة، كنت اجلس في الصف الوسط وفي المقدمة منه، دخل الطلبة إلى صفوفهم، تبعنا المدرس إلى الصف، وكان يهتم اهتماماً خاصاً بدرس النصوص الأدبية، وله علاقة متميزة بمن يحفظ الشعر ويجيد أداءه قراءة، كتب المدرس على السبورة التمارين التي ينوي إكمالها، دخل المفتش الصف بمرافقة المدير، انسحب المدير، ووقف المفتش أمام السبورة بعد انتهاء المدرس من الترحاب بالزائر وتعريفنا به، جلس المدرس في الصف الوسط وعلى آخر مقعد منه ولأول مرة انتبه إلى إمكانية أن يقوم احد بإلقاء الدرس أوحل التمارين غير مدرسنا نفسه لقد كان يحدث أن يستبدل المدرس بمدرس آخر من المدرسة نفسها أومن المدارس الأخرى، إما أن يكون موجوداً

في الصف ويقوم آخر بمهمته فهذا ما لاحظته للمرة الأولى. فقد كان الزائر يسمع، ثم يخرج ويدخل مع المعلم أو المدرس إلى الإدارة، والذي كنت أعرفه أنهما يذهبان إلى هناك ليشربا الشاي ليس إلا !

كتب المفتش جملة على السبورة وطلب منا إعرابها، فأعرب أحدنا، سأل المفتش طالباً آخر بعد أن قال (خطأ)، شعرت إن مدرسنا اضطرب في مكانه، فانا مهتم بأمر جلوسه هكذا. عندما هم المفتش بالحصول على إجابة من طالب آخر، اعترض مدرسنا بلطف ولياقة، وأخذ يداري المفتش، ويوحي له بان الطالب على صواب في آن معاً. تهكم المفتش من الطالب، وأصر على رأيه بتخطيئه الطالب , قال المدرس : عفواً أستاذ بهذه الطريقة سنحبط الطالب نفسياً، فتهكم المفتش من المدرس نفسه، فما كان من المدرس إلا أن قال للمفتش:

خذ حقيبتك واخرج

وقال جملةً طريفة تبعث على الضحك

ولم نضحك في حينها.

خرج المفتش من الصف متذمراً فيما ساد المدرسة جو من السكون والتشنج، استقبل المدير المفتش وادخله الإدارة مستفهماً ومعتذراً فيما استمر مدرسنا في حل التمارين، بعد أن قال : لقد أردت أن أجنبه الحرج فسعى لأن يوقعني فيه.

اجتمع مدرسو اللغة العربية في الإدارة معهم المفتش والمدير وأجمعوا على صحة ما ذهب إليه المدرس، ولا ادري ما الذي آلت إليه مخاطبات المفتش إلى مديرية التربية. فقد تبين إن المفتش كان

رفيقاً حزبياً، من ذلك اليوم وأنا أتوجس ممن يأتي مفتشاً...

في المرحلة نفسها كان أستاذٌ لي يدعى (قاسم محمد حمزة) يدرسنا الإسلامية في آخر العام الدراسي سداً للشاغر. وإذا كان مدرسنا – صاحب الموقف مع المفتش– طويلاً فارع القامة، كبير الساعد وقويه، له صوت جهوري، تحترمه الطلاب مهابة وخشية في آن، فان أستاذ (قاسم) رشيق الجسم، لا بالطويل ولا بالقصير، جميل الصوت، حليق اللحية والشارب، جميل الأسنان، له لثغة أتذكرها واسمعها ولا استطيع تشخيصها الآن، يستعين بعوينات طبية أثناء القراءة، إطارها حديدي رفيع، كان لا يهتم بضبط الصف ولا يوحي لنا بأننا نحتاج إلى ضبط مع أن كثيراً من المدرسين شكونا إلى الإدارة، فهو يدير الصف دون أن ينبه هذا أو يضرب على السبورة، إنما يكتفي بالشرح ناظراً لمن يحاول أن يلهي نفسه.

أذكر أني كنت أفاجأ في السنين التالية لتلك المرحلة بتحويل من درَّسني موظفاً في هذه الدائرة أو تلك، ولكن ما أثار التساؤل في نفسي اختفاء أستاذ (قاسم) مرة واحدة، وكنت عندما أستفهم من أصدقائي يقولون: أخذوه لأنه شيوعيٌّ !!

أذكر أني كنت أفقد أحبَّ المدرسين إليّ بنقلهم أو اختفائهم ليستبدلوا بمن ينقطع ويتغيب عن الدوام، أذكر أنهم كانوا ينقطعون لأسباب تفتيشية !

ومما يلفت الانتباه أن الإدارة كانت تسوغ انقطاعهم، وتعده جزء من

واجبهم. لقد صرت لا أميز بين مدرس ومدير وحسب، بل صرت أميز بين مدرس ومدرس، وأذكر أن أحد المستخدمين في المدرسة كان يتمتع بسلطة ما، لم افقه طبيعتها آنذاك !!

أستطيع الآن أن أربط بين عدم رغبة عمي في الانتماء، وتحويله إلى وظيفة أخرى غير التدريس، وبين محاولة المفتش النيل من مدرسنا وحرص الإدارة على الاعتذار من المفتش، وقد تأكدنا من خطأ رأيه في الإعراب، فإننا كنا نسأل الرائح والغادي لنطمئن إلى علمية مدرسنا، فإنه كان من الغريب أن يخطأ معلم أو مدرس، وقد اخطأ من جاء مقيماً مصححاً مفتشاً !

لقد بدأت رائحة المناصب الحزبية تزكم الأنوف، والتباهي بها يفضح التسطح في الرؤية والرؤيا، وقد كانت البداية — بالنسبة لي- حادثة المفتش.

إن سلوك (المنظمين) سرياً يكذب زعم سواهم، فهم يعطونك من الأشياء ما تحسه من الداخل، هم يحرصون على أن يشعروك بإنسانيتك ومصادر قوتك، وهم إن يتركوك يتركوك مبتسماً.

اذكر جاري د. (صلاح عبد الوهاب) وأخويه (حامداً) و (حيدراً)، أذكر أني كنت أحب السلام عليهم وهم يحبون ذلك لكنهم لا يلتقون معي في هواية كرة القدم، إذ كانوا أكثر مني انصرافاً إلى الدراسة، وأكثر مني حضوراً في البيت، فانا بين العمل واللعب والدراسة، هؤلاء يشبهون أستاذ قاسم رقة وبياض وجهه وطريقة اختفاءه، لقد قيل « أخذوهم لأنهم متدينون، ولا يعلم أحد لِمَ

اخذوا جاري (حميد جلوب)، فإنني حتى الساعة لا أظنه منظماً في السر في حزب ما، هو عامل حكومي يلبس ملبس أبي – (دشداشة) و(سترة) و (يشماغا) و (عقالا). لقد قيل بأنه نصب (مقاومة) للأشخاص على بيته وقاوم الجيش في إذار١٩٩١، ولم أرَ ذلك بنفسي ولم يؤكد أحد هذا الأمر، كان ابنه الوحيد (عباس) يقول : يا ليت كنا سنفرح لو أن أبي فعل ذلك وكنا سنفك الحزن عليه «!.

إن ظاهرة اختفاء الناس تفاقمت حتى بلغت غايتها عام ١٩٩١ وإن كنت ممن وقف على المقابر الجماعية المنتشرة في العراق. ستقدر هول المصيبة وكارثيتها، أن التشييع الجماعي ساد هذه الأيام، فالبيوت فقدت من أبنائها ونسائها وأطفالها فراداً وجماعات، بيوت العراق هذه الأيام في حركة دائمة كل يعزي الآخر.

لك الآن أن تحيي من غاب أخاً ومعلماً وصديقاً وجاراً
تتحدث إليه باكياً باسماً
كان يمكن أن تكون أنت هناك في حضرة الغياب
وهو هنا يتأملك ! ويحييك
فقد كان جلنا إما مشروع موت جماعي , أو مشروع اختفاء.

وإذا كنت قد تعلمت أن تميز بين نباح ونباح، فذلك لأنك تسمع نباحاً وتقرأ من ينبح، فكيف لك أن تتقي مخبراً سرياً وأنت لم تسمعه ولم تره وهو يسمعك ويبصرك ويقرأ نواياك، لابد أن الناس ومنهم أقاربي كانوا يتحدثون في (السياسة) خلسة، لقد كانوا أكثر مني تحسباً وحيطة، لقد كان انجازهم جد عظيم، فما زال في الشوارع أناس على الرغم من المقابر الجماعية المهولة التي رأيت. لقد كان انجاز من ظل حياً

كبيراً، فكثير من لم يقطع لسانه أو يده أو أذنه.

أنت إن ربطت النتائج بالمسببات ستفكر بالجنون، أو تقتصد إلى حد كبير في كلامك، أو تسعى لأن تطري على...، وتبتسم لي...، وتصدق بمن هب ودب، وذلك اتقاءً للموت أو الاخفاء، وبعض الشر أسخف من بعض !

قراءة في القرى

* التجارب القاسية
قد تكون مدعاة
للتفكر

تعلمت أن لا اشتم احداً
لأنني لا أحب العراك
ولا أحبذه وسيلة بين الناس وبين الدول
ولطموحي في أن لا أضع نفسي في موقف المطلوب.
أن العراك سلب مني أردية أطفالي
وزجاج نوافذ بيتي وأثاثه
ان العراك يتَّمَ
ورمَّلَ
وأذلَّ

وأجاعَ !

أذكر أني كنت أجوب القرى النائية أدفع ضرائب العراك – أصلح ما عطب من أثاث بيوتها، أحمل على كتفي عدة الإصلاح السفرية، وقد عرفت أن للقرى أسرارها، ولابد لمن يمتهن مهنتي أن يعرفها

عليه أن يميز بين نباح ونباح

وثمر وثمر

عليه أن يتوقع عدد البيوت التي تفضي إليها هذه الطريق

وعليه أن ينتخب معايير خاصة توفر له الوقت والجهد

فهو قد يرمي عصاه في قرية تربي الجواميس

لأن كلابهم لا تهرُّ ولا تغدر

ولا يرميها في سواها فهناك كلاب تفاجئك دون نباح

فتسلبك أمنك

أو جزءاً من لحمك

أو جزءاً من ردائك

عليك أن تستقرئ وتجرب لتخلص إلى معايير لا تخذل

عليك أن تقرأ النباح كيفية في وقت لا تهمل فيه حركات الفم

وتقلبات الرأس وقدحات العيون

ومعها هيأة الكلب بوصفه وحدة واحدة

فقراءة الجزء قد تضر بك

ولا تمكنك من أن تميز بين نباح ونباح

وستكون معرضاً للعض في أي يوم

وفي أية قرية
وعلى سنِّ أجبن الكلاب.

أذكر أني تعاملت مع القرية التعامل نفسه فقد كنت انظر إليها نباحاً وسواقيَ مواشيَ, فلا أقصد قرية جفَّ ماؤها وهزلت ماشيتها، وأن هذه القراءة للقرى , جنبتني ساعات من المشي تحت حر الظهيرة، ففي قرية كبيرة قد لا تجد رزقاً لك بينما تجد ذلك في بيت كثر ماؤه وملأ المساحات ثمره، كان لابد لي من أن أقرأ القرى من الداخل وأذكر أني كنت أخمن ما يمكن أن أعود به من رزق أو نباح.

كانت بيوت القرى تسورها أسيجة وكنت عندما أنادي لأعرف الناس بمهنتي لا يسمعونني، فيبعثون بيد احد صغارهم بعملة ظناً منهم بأن المنادي مُكَدٍّ , وأذكر أني أقمت أكثر من علاقة صداقة حميمة مع غير أسرة هناك عندما أصلحت ما أصلحت وعندما خاضوا بي معرفة وخضت بهم، كنت أزورهم بين الحين والحين اطمئناناً على ما أصلحت، فزادهم ذلك اطمئناناً وقوة علاقة بي.

أذكر أني كنت أقص على احد أصدقائي الأدباء ذلك فكان يقول سترفضها — العملة – مرة مرتين، وستقبلها لاحقاً، لكنني حتى الساعة لم افعلها، على أن القرى النائية نفسها علمتني أن لا أراهن إلا على ما بوسعي حقاً تحقيقه، وها أنا اكتب وعيني على عدتي السفرية.

نفس الحكومة طويل

* هو نعتٌ
لا يصحُّ على الإنسان
قطعاً !

أذكر أني كنت اسمع مثلاً من عامة الناس وبسائطهم يقول «نفس الحكومة طويل». وقد صدق هذا المثل مرة وكذب أخرى سأذكر متى كان يصدق ومتى يكذب.

إذا وشى بك مخبر سري في أمر يخص صدام، كأن تكون شتمته أوتذمرت منه، لان حروبه أتت على إخوانك وأزواج أخواتك، ستواجه بنفس سريع حارق خارق، وسيأخذونك على أجمل وجه للسرعة، وسيبدأ النفس الطويل بالظهور، فحين يسأل عنك ذووك ستماطل الحكومة، تعال بعد أسبوع ونجيبك.. وتعال بعد شهر... وبعد سنة، إلى ان تنسى أمك صورتك وملامح وجهك. وأنت تسأل ونحن نجيب !؟

نفس الحكومة يطول حين تقع في الأسر، فهي لا تسأل عنك، لكنك إذا شتمت صدام في أسرك لتخليه عنك، ستفّعل الحكومة من نفسها القصير وتبعث لك من يقتص منك هناك. فلك الأسر أو الموت و « أيا جارتا لو تشعرين بحالي «.

الحكومة تتخلى عن نفسها الطويل إذا كانت بها حاجة إليك، ألا تتذكر معي أنها سارعت إلى تبادل الأسرى مع إيران حين دخلت الكويت، ثم ألقت بأكثرهم في مقابر جماعية، اختصاراً للأمر حين اقتضى وضع الحكومة الأمني ذلك ؟!!

الحكومة تريد لك أن تموت سريعاً، فماذا تصنع لك وقد نجوت من الموت، ووقعت في الأسر، إذن فمت هناك رويداً رويدا ! هما نفسان، والحكومة تختار ما يفضي بك إلى الموت سريعا.

لا تعجب لنفس الحكومة الطويل، إذا دعتك للاحتياط وبقيت احتياطاً لثمان سنوات، ولا تعجب إذا لم تتمتع بإجازة دورية على مدى ثلاثة أشهر لا ترى أخاً فهو إن تمتع بإجازة كنت قد التحقت، ولا ترى زوجة، أذكر أن الحكومة – والحق يقال – كانت تضع الكافور في موضعه الذي تنسى معه انك ذكر !

الحكومة تضعك في الكويت غاية في السرعة وتنسحب سريعاً لتتركك ترجع مشياً على الأقدام.

أذكر أنهم باعوا بزاتهم العسكرية وأسلحتهم بـ (دشداشة) عام ١٩٩١ وفعلوها مرة أخرى عام ٢٠٠٣. ويبدو أنهم هذه المرة اضطروا إلى اللجوء إلى اعتماد نفسهم الطويل، فكان اختفاؤهم دون ظهور.

عشرون عاماً وأنت في الأسر تحت وطأة نفس الحكومة الطويل ثم إذا عدت وكتبت لك النجاة من مشروع موت جماعي، وجدت مدينتك خربة، ودارك – إن كنت تملك داراً – آيلاً للسقوط

وزوجتك عجوزاً
ومن مات مات
ومن أُعيق أُعيق، ومن اختفى اختفى
ومن جُنَّ جُنَّ
وما كان وطناً صار سجناً، يعج بالمخبرين السريين وذوي البزات العسكرية.

لصوت ديك واحد
لا تطلع الشمس

* أليس كذلك؟

إن اتباع نظام العراق لسياسة ما، تأتى مستعجلة في الوقت نفسه لا يمكن التراجع عنها إن ثبت فشلها، وعندما تم تأهيل الحكومي من القطاعات، صفع الموظف والمواطن المتعفف، بما يسمى بالاكتفاء الذاتي، فمن يقصد المستشفى ليطلب الشفاء سيمرض مرضاً عضالاً فهو سيوقن بان النظام خذله ووضعه وجهاً لوجه ووحيداً أمام المرض، وقد وضح هذا الأمر بعد انتفاضة عام ١٩٩١. فيما يخص السياسة التعليمية مثلا : أذكر أني كنت أحد طلاب السادس الإعدادي عام ١٩٨٣ وكنت قد تخرجت منه بمعدل ٧١٪ وكانت وزارة التعليم العالي والبحث العلمي قد أطبقت الخناق على المتخرجين وقد قضت بأن يخدم المتخرج في الجيش ثم يختار إن بقي حياً، الكلية التي يريد بعد

التسريح بدون شرط المعدل باستثناء ذوي المعدلات العالية، وكنت ممن لا يطيق الالتزامات العسكرية، وتخلصاً من ذلك، بدلاً من انتظار كلية القانون إلى ما بعد التسريح، رضيت بمعهد المعلمين لعل الحرب تضع أوزارها و:

إذا دَرَّتْ نياقُكَ فاحْتَلِبْها
فلا تدري الفصيلُ لِمَنْ يَؤول

عاد من عاد من الجيش في عام ١٩٩١، واختيار الكلية التي يريد سواء أأهله مستواه العلمي أم لا ؟ فصار ذو المعدل الواطئ محامياً ومهندساً ومعاوناً طبياً، واستمر المسير بهذا الاتجاه، فصار الشرطي ضابطاً في الشرطة بمكرمة والعريف ضابطاً في الجيش، وقارئ المقاييس مدير دائرة وهلم جراً. واستمر الخراب بالتناسل، وان تهتف عاليا تكمل تعليمك العالي دون مشقة، وتناسل الأميّون، وطغت البزات العسكرية في الحرم الجامعي (وتعددت البلوى على واحد فرد) وتفاقم الغش والسوء في التربية، والمزاجية والتخبط في الإدارة، والتدني في المستوى العلمي:

أذكر أني تخرجت مختصاً بتدريس العربية، ولي اهتمامات أدبية، فأسند لي مدير مدرستي تدريس الصف الأول الابتدائي، ولم أتمكن من إقناعه بإمكانية تدريس للصف الخامس أو السادس، وأنت لا تعجب – تحت وطأة الخراب– إن وجدت معلماً يحرم الغناء، يدرس

النشيد- أو معلمة كبيرة السن تدرس الرياضة، ومن تساقطت أسنانه يدرس اللغة الإنكليزية. كان من بين تعليمات وزارة التربية أن يحول المدير معلماً إن لم يحقق نسبة نجاح عالية في الامتحان الوزاري، والتفافاً على تلك التعليمات واحتفاظاً بالمناصب الإدارية، ومعالجة الخطأ بالخطأ، كانت الإدارات (تتعاون) فيما بينها لإنجاح الجميع وبنسبة ١٠٠٪. فلا تفاجئ أنت مدرس الصف الأول المتوسط بطلبة لا يجيدون القراءة والكتابة، فللنسبة احكام.

أذكر أني فكرت في فك الطوق الذي يخنقني وعزمت على إكمال دراستي الأولية، تركت نسبة النجاح خلفي لا تعرف الهبوط ١٠٠٪ كما الاستفتاءات وأصحاب البزات العسكرية ببزاتهم وذوي المناصب الإدارية بمناصبهم..

أذكر أني قلت في نفسي سأتعرف على مجتمع آخر ولعلي سأحاور وأحاور، أسمع وأسمع، كان ما يسمى الاتحاد الوطني يقيم مؤتمراً علمياً سنوياً، وحين تقدم البحوث وتناقش، يفوز من يفوز، ويعلن اسمه في لوحة الفائزين ويهنأ من لدن بعض أساتذته وزملائه، ثم يفاجأ بعد مدة بتغيير النتائج ويرشح للمؤتمر القطري من لم يكن فائزا من البحوث:

وأنت إن شاركت في مسابقة القصة أو الشعر يفوز نتاجك، فلا تعجب إن بلغت بأنك لا يحق لك قراءة مادتك الفائزة، يقرأ من يسبقك بالتسلسل، ومن يأتي بعدك، عليك أن تكون حليما، وتعرف ما يريدون فليس بوسعك أن تقرأ قصيدة عن (سوق الحطابات) هذه السوق الذي تبيع فيه النسوة آنية البيت نزولا عند مقتضيات وصفة طبية،

وليس بوسعك أن تقرأ قصيدة عن (الديك) :
يصيح وحيداً
صوته يمضي كالموج
لا يدري إلى أين
أصوات أقفال لأبواب بعيدة
وقطط تموءُ
تكرر السكون
ساكناً كان الليل
يمشي :
تمشي السماء
يقف :
تقف
يصيح :
تصغي الجدران والشوارع
يصغي :
تصغي
بين الصيحة والصيحة يصغي
كمن ينتظر جوابا من احد
وحيدا
وحيداً يصيح
ولصوت ديك واحد لا تطلع

الشمس!

لقد كان من الغريب أن تجعل ذاتك تتحدث، فعلى الشاعر أن يفني عمره تعبوياً مغلقاً، ولا يسمع من لا يحب إلا النباح , صياح الديكة.

أنهيت دراستي الأولية، وعدت إلى مدرستي نفسها وإلى الصف الذي كنت أدرسه – الأول الابتدائي– وإلى مدير المدرسة نفسه، وقد وجدت الأمور تزداد قرفاً والمستوى العلمي يزداد تدنياً، والمدراء يزدادون إثارة ومشاكسة للمعلم.

أذكر أن مدير المدرسة أمر احد التلاميذ بغلق باب المدرسة بوجه معلمه، لأنه جاء المدرسة قبل ربع ساعة من بداية الدوام, وكان عليه حسب رأي المدير ان يأتي قبل ذلك لضرورات أمنية، امسك المعلم بتلابيب المدير لسلوكه (الرفاقي) وأمسك المدير بتلابيب المعلم اشتكى المعلم مدير المدرسة إلى المدير العام، فما كان من المدير العام إلا أن استنكر تصرف المدير، وكتب يؤنبه (ما كان لك أن تطرد المعلم الفلاني من المدرسة) شدد معي على لفظة (تطرد) الم أقل لك : إن أصحاب البزات العسكرية ذوي الجذور (التفتيشية) يعرفون كيف يتحدثون، وكيف يتوخون الدقة في مخاطباتهم ؟

انتهى التحقيق بنقل المعلم إلى مدرسة متوسطة وظل مدير المدرسة. مديراً

و: (غريبة الروح...غريبة الروح)

العدة السفرية
و مزاح القرى النائية

* ماذا تحسبني سأفعل ؟

أذكر أني كنت احرص على إكمال أدوات عدتي السفرية، ففي القرى النائية عندما أصلح طباخاً، يكون لزاماً علي أن افككه إلى أجزائه، ثم أعيده صامولة صامولة، وجزءاً جزءاً، وعتلة عتلة، علي أن أكون عارفاً بأسراره، وإلا سأقع في حرج كبير، لك أن تتصوريني محاطاً بعشرات الصبية والرجال والنساء، ينظرونني بتأمل، وإذا كنت قد تعلمت من النقد الأدبي أن استعمل المصطلح في موضعه الدقيق، فعليَّ أيضا أن لا أنسى وضع (البرغي) في مكانه وأية محاولة للتجريب تجلب الشك لمهارتي، وأي شعور بافتقاري لعتلة واحدة من عتلات عدتي السفرية، سوف تعرضني لمزاح

هل تعرضت لمزاح في قرية نائية ؟

إن المزاح يخشن كلما ابتعدت القرى عن المدن

وكلما قلت وسائط نقلها وطغت طرقها الترابية !

أذكر أني تعلمت من النقد حسن التأني في الوصول إلى الفكرة الأساس والهدف، واشهد أني أفدت من هذا في القرى، فمهمتي لا تتبدى في إصلاح ما هو معطوب وحسب، إنما تتعدى ذلك إلى

إمتاع الجُلاس والرد على بعض أسئلتهم وكنت عندما أردُّ على أسئلتهم أمازحهم : إن اجري على قدر التصليح، وانتم تريدوني أن أصلح واعلم. إن اكتمال العدة يقيك السؤال مهما كان بسيطاً.

واكتمال العدة يتعدى العتلات فأنت في قرية، عليك أن تتحدث بحديثها بساطة وتوخياً للعمق، وعليك أن تلم بأحبّ أهازيجها وأمثالها الشعبية، لقد تعلمت من النقد ان الجمهور لا يصفق للمبدع دائما، إنما يصفق لما يتذوقه ويحفظه، ولابد لك وأنت تعمل في قرية الصفرة، أو (سوق دوهان) أن تحفظ أهزوجة شيخ دوهان نفسه التي قالها قبل نصف قرن :

(يعلوان الرياسة تريد كوّه وحيل
ومهرتك تهنجل ما تسبك الخيل)

إن النقد علمني أن احرص على إكمال أدوات عدتي وأحرص على مهنتي اتقاناً، حرصي على ابني الذي يرافقني من الكلاب الغدارة وحر الظهيرة، وأي مهادنة في تصليح طباخ ما، سيشيع خبرها إلى باقي القرى، فالقرى متشابكة العلاقات. وأذكر أني كنت عندما أدخل قرية أواجه فيها شخصاً زائراً كنت قد أصلحت له ما أصلحت، فيستحيل مصدر ثناء فيختصر لي كثيراً من التفاصيل، التي تجعل الآخر يطمئن لي، والتي لا بد لي من دونه، انه ابدأ بها من السطر الأول. إن إكمال عدة العمل قد تتعدى العتلات والمعرفة بأسرار ما تصلح والاهتمام بما تحفظ القرى، إلى انك يجب أن تلبس ما يلبسون، ويجب أن لا تدخل البيوت بمفردك. وكان رفيقي إلى تلك القرى ابني :

أبتي
نأت المدينة
فمن للغريبين في القرية النائية وحر الظهيرة
ألقيتُ عصاي
فقد نام على العتبات النباحُ

يجب أن تجيد السباحة فثمة معابر من جذوع النخل، ولابد من إجادة السباحة استكمالاً للعدة وتحسباً للطوارئ.

أذكر أني كنت أضع في حسباني المسير لكيلومترات عديدة، فعليك بعد العودة أن تعرف كيف تستلقي استعداداً ليوم آخر من المشي :

في الليل
تستريح الشوارع من هوس الأقدام
وتمتد مع السكون
الليل دخان
وأعقاب سجائر
ووسادة تحت القدمين
وقرية من طين ونباح
نلوح للنهر ونبتسم
حين ينعطف الطريق الترابي صوب المدينة.

أذكر أني كنت عندما أعود من القرى وأدخل الدار، أجلس دونما كلام أتروي وحدي، أتأملني، وكان إذا ما ضاق بي البيت،

قصدت صديقاً لي، كنت تعودت زيارته وتعود زيارتي، كنت أقص عليه ما يجري علي، كان يخفف علي وطأة الاختناق في المدرسة والجامعة والوسط الثقافي، وكان يتردد على بيته غير واحد جلهم أقرباء له، وكلهم كان إما أديباً وإما مثقفاً، سوى هذا البيت وسوى من يؤم حديقته من الناس، كنت اشعر بالاغتراب، لقد قضيت في ذلك البيت أطول ساعات الليالي وأغناها حواراً ثقافياً وسياسياً واجتماعياً، وأجمل ما كان مما أذكر أنهم يخوضون معك بما تخوض بمعرفة شعراً أوهماً أو غناءً، هم يحفظون ما أحفظ و يغنون ما أغني، أذواق الجميع متشابهة إلى حد كبير وكذا رؤاهم ! كان البيت بما فيه مرآة لي ولم أذكر أننا التقينا نهاراً ! غير أني كنت التقي أستاذاً لي نهاراً في بيته، كان يشبه هؤلاء في كل شيء إلا اللقاءات الليلية أو أن يسمعك صوته مدندناً.

شوارعي وقراي

*كلٌ يعرفُ نفسه

لا تعجب إن وضعت أمامك نفسي بما تضمر وتبوح، بفقرها وعوزها وما عانت منه، وأرجو أن لا يرد في خلدك، أن هذه الذات، وهذا الكيان بوزنه المقتضب قد خذلني، أو أنني عانيت منه أو عانى مني، إنني أودي، وأزعم أن هذا الكيان يودني أيضاً، فلو كنا غير منسجمين ما كان لي أن أتحدث عنه، وما كان له أن يمدني بما أنا

بائح الآن، هو يعرفني جيداً وأعرفه، لا أكتمك السر كانت نفسي وكان كياني كل ينوء بصاحبه أحياناً، غير أنهما كانا يتلذذان بذلك ويتمتعان ويزدادان إلفة وصحبة !

أنا افترض أنك من الذكاء إلى درجة تستطيع فيها قراءتي، إذ لابد انك كنت ترى ما أرى وتسمع ما أسمع، وتستطيع الربط والوصول إلى ما تريد، لكنني اختصر لك، فأحدثك عمن اعرف — عني – وما دمت أعرف نفسي لابد انك ستقول في نفسك انه يعرفني أو على الأقل ستضع ذلك في حسبانك !

أنا أودك كما أود نفسي واعتد بك كما اعتد بها، ولا أذكر أني بيّت النية لأجلدك أو أجلدها.

إنني عندما أتحدث عن فاقة وجوع واضطهاد، فإنما لأذكرك بمن آل بنا إلى هذا المآل! وعندما أتحدث عن ضآلة جسم فإنما لتزدري من جعل أجسامنا تضأل، فإننا المفقرون تناسلنا في العقود المنصرمة الثلاثة، وإننا ذوي الجسوم الضئيلة تفاقمنا عددا !

أن الفقر لا يذيب اللحم،

الاضطهاد من يفعل ذلك.

إنني أعرف من يشبهني وأميز من لا،

كما أميز بين نباح ونباح

وطريق و طريق،

من يشبهني يقرؤني الآن ويبتسم،

ومن لا،

يقرأ ويتلفت،
فهو يعلم أن له نصيباً مما سلب من أثاث بيتي، ولقمة مما فقدت من لحم جسمي!
القرى قرايَ
والشوارع بعد منتصف الليل شوارعي
اعرف من يجوبها مستنشقاً هواءها
واعرف من يخرج متلصصاً.

الطريق إلى الليل

قل لي:
كيف (أصحوك) حتى ساعة المواء؟
قل
من يسأل القطط
لِمَ لا تخشاني ؟
وأنا أفاجئها
إذ كانت الأزقة
تنعطف بي
إليك؟
أيها المنساب برودةً
ما بين التراب والتراب

الظهر بعد أن تنتصف الشموس ليلاً
والشجر
قبل أن يبدأ المواء ظهراً
لم تسكن فوق أغصانها الزقزقات
لا السواد سواد
ولا المواء
يجمل صمت الأشياء
فكيف لي
أن اقطع الطريق
منك إلى الوسادة
مسترخياً
وأنام
لا أستيقظ
حتى يصيح ديك الصباح ؟

أزمـــات أزمـــات

* سأدع هذه الورقة بيضاء
فذلك أجدى

كان لابد للعراقي كيما يبقى حياً , أن يعرف كيف يتعامل مع الأزمات التي تعددت أضربُها، وتنوعت أشكال أذيتها، لقد اتجه النظام من تصفية عناصره الوطنية — هو- إلى تصفية العناصر الوطنية من الأحزاب الأخرى، لخلق أزمة حادة في طبيعة العلاقة مع الصديق وصديقه، والزميل في المدرسة وزميله،والجار وجاره، فحين تختفي الناس من الشارع ومن البيوت ومن المدارس، تظهر إلى الواقع حالة من الخوف، فأنت تأخذ بذنب صديقك وجارك وأخيك — هذا إن كان له ذنب - وإن لم يكن، فعليك أن تدفع ضريبة صداقتك لصديقك وإخوتك لأخيك، بالتوقيف والتحقيق والتعذيب.

أذكر أن الناس حين يختفي أحد أفرادها، تحجم علاقات الجيران والأصدقاء والأقارب بهم، ويبدأ المرء بالتذمر واختلاق الموقف الرافض للمختفي، خشية الوشاية بمن لم يتذمر، وبمن لا يجد الحق مع (الحكومة) وليس مع سواها في الأحوال جميعها، ثم على المرء أن يكون متواصلاً في عدم الحديث عن أي شيء يخص سياسة النظام الداخلية والخارجية، على العراقي كي يبقى حياً أن يفهم بالإشارة والإيحاء، فإذا

شنت الحكومة حملة على ذوي اللحى، حلقت الناس لحاها حتى من كان مصاباً بمرض جلدي، ثم هناك أزمة بين الحكومة والسواد، فهي لا تحب أن يحزن الإنسان، مثلما لا تحب أن يفرح، فأنت لابد أن تأخذ موافقة (الأمن) حتى تقيم حفلة عرس، ولابد أن تأخذ موافقة الأمن حتى تقيم عزاء، وكذلك لابد لك أن تأخذ موافقة الآمن حتى تحج بيت الله الحرام، ولابد أن تفعل ذلك حتى يكون بوسعك أن تتزوج أو تتعين أو تسافر! هي أزمات منها ما يخص الملبس ومنها ما يخص الشكل الطبيعي للإنسان، منها ما يخص الحديث، ومع من ! والمشيُ ومع من ! لابد أن تأخذ موافقة الآمن، قبل ان يقبض عليك هذا الأمن، وللأمن (أزلامه) كما تعلم، (أزلام) لا تجيد الابتسامة ولا تجيد الحوار، هم عادة –بشاربين طويلين، وبأجسام ضخمة، وبقلوب خشنة حد التحجر، وطالما هم أزلام (أمن) فهذه هي مواصفاتهم العامة التي تتناسب وطبيعة المهمات (الإنسانية والأمنية) التي يقومون بها. إذا كانت الحملة التي تشن على الأحزاب الدينية فاحلق لحيتك، ودع أي ملبس يوحي بالحزن، ولا تحمل سبحة في يدك، وإذا كانت الحملة تشن على الشيوعيين فأطلق لحيتك ولا تحلق شاربك، فذلك من إمارات الغش والاختفاء والتمويه!

أذكر أن صديقاً قروياً طيب السريرة، مد سجادته وصلى في قاعة المدرسة قبل بدء الدوام، وكان ذلك في عام ١٩٨٢، فلم يكن الدرس الثاني حتى استدعي للتحقيق، عندما التقيته نصحته أن لا يفعل ذلك ثانية، وان يشيع بأنه يعرف أصناف الخمور، و يتعاطى

أفخرها !

أذكر أني خرجت ذات صباح لاشتري ما يلزم للفطور فالتقاني من أعرفه، سوى صباح الخير لم يدر بيننا كلام، وفي المساء أخذتني سيارة (لاندكروز) إلى المدرسة في آخر الشارع من بيتي، وكان حينها قد خط من اعرفه شعارات رافضة للنظام على جدران المدرسة وبيوت البعثيين بالتحديد – طبعاً كانت المدرسة منظمة حزبية– فقدموني إلى ذلك الرفيق، سألني بشكل مباشر: لقد سلمت اليوم على فلان الفلاني، قلت: نعم، قال طيب: نحن نعرف كل شيء عنك، وعن أصدقائك قلت: حتماً استاد، قال ما رأيك بفلان فهو يبدو منطوياً – أي أنه ملتزم دينياً– قلت: والله استاد هذا ولد طيب، ونسيبه مدير مدرسة – كان ذلك عام ١٩٨١، وهو يتواجد عندهم في أثناء الدوام ويعود إلى أهله في الشوملي عند العطلة قال : هل صحيح أنك تنوي خطبة ابن المدير هذا، قلت: لا فأنا ما زلت طالباً ولكنهم أصدقائي وأتردد عليهم كثيراً فربما فهم ذلك لهذا السبب، فقال: هل تشرب؟ ضحكت والتفت! قال: اجب، قلت: نعم انا وصديقي الذي سألتني عنه، قال: مإذا يشرب، قلت (مبتسماً): كلانا يشرب البيرة، صمت ثم قال: هل تشك بأحد خط على الجدران طالما كنت خارجاً في الصباح، قلت: لا، ولكنني ليس الوحيد في الشارع، وبيت الرفيق فلان بعيد عنا، والمدرسة ابعد، قال: ابق عند الباب سأوصلك إلى البيت، وقد احتاجك في الليل! أوصلني وميز باب الدار ومضى بسيارته (اللاندكروز)، غسلت

وأبدلت ملابسي وجلست انتظره برعب كبير، لكنه مضى دون رجعة، لم انقطع عن صديقي، لكنني كنت متأكداً بأنه ليس هو من خط الشعارات، بعد اسبوعين جلست مع الفاعل فهو صديقي وقصصت عليه ما جرى، قال: إن إجابتك لا تجلب الشك، ولو لم تقل بأنك تشرب، لما كنت معي الآن، صديقي هذا كان يكبرني بعامين، وكان منظماً في كل شيء يعرف كيف يموه، فهو يدعي الشرب بملحة أحياناً، ويحاول المزاح بملحة أحياناً أيضاً، ولم أدر أنه يريد من ذلك الوصول إلى هدف ألا بعد سنين، وإلا بعد مغادرته العراق أبّان الانتفاضة الشعبانية.

لقد كان عام ١٩٩١ عاماً ذهبياً للنظام البعثي المباد، فقد أجهز فيه على كل المرشحين للاختفاء مرة واحدة، وأمات كل من كان يعتقد انه معارض له، وكان بعد ذلك قد خلق أزمات من نوع آخر، كانت تعمل على (تأديب) نعم على تأديب المحافظات التي ثارت، وكان ذلك عن طريق محاربتهم اقتصادياً، فاستعمل الماء أداةً لهذه الحرب واستعمل الكهرباء : أذكر أني كنت أتمتع بالكهرباء طيلة أيام مهرجان بابل الدولي، ألا تتذكر أنت : واستعمل النفط في الشتاء والغاز كذلك، أذكر أن الناس كانت تتجمع طوابير عند معمل الغاز في الحلة، ويبدأ اصطفافهم بعد منتصف الليل، ويراجعهم أبناؤهم بالفطور والغداء، وأما يعود بأسطوانة غاز أولا ! هنالك من يُدعس قبل وصوله إلى المعمل ليلاً، وهناك من سقطت على إطراف أصابعه

قنينة، بين من في الطوابير المرأة والبنت والعجوز بينهم الطفل والوالد والشيخ، والموظف النزيه المتعفف، المتقاعد كذلك.

أذكر أني عندما كنت أجوب القرى مصلِّحاً جوالاً للطباخات الغازية، كنت أرى الفلاحين يحفرون (البريمة) في وسط الأنهار للحصول على ماء الشرب، والصبية يلعبون كرة قدم وسط هذه الأنهر، ولك أن تتصور شدة الجفاف الذي تعانيه انهار القرى. لا احد يدري إلى أين يتسرب ماء دجلة والفرات، نهران والناس تعاني العطش، وليس الحقول، فالحقول جفت والأراضي بان ملح تربتها، نفط وبلد زراعي، شمال سياحي وعتبات تدر ذهباً، جنوب وأهوار وسمك وطير والناس جياع! فماذا تسمي ذلك، وبأية مرارة يمكن وصفه! أذكر أن النظام إذا ما تحدث عن تحسين الطاقة الكهربائية مثلاً، وانه اعد خطة ناجحة لاستقرار التيار الكهربائي، سنتوقع وبالتجربة أن ساعات الانقطاع ستزداد لتصل إلى ثلاث وعشرين ساعة في اليوم، وكلما فكر في القضاء على أزمة ما تفاقمت هذه الأزمة، وكأنه يوحي لمسؤوليه بتطبيق معكوس ما يعلن !

أذكر أن للنظام أزماته الخارجية المفتعلة التي كانت تأتي بوابل خرابها على الداخل،فهو بين الحين والحين يتحدى هذه الدولة أو تلك، ويعلن حربه على أمريكا وإسرائيل، وعلى الناس أن تتظاهر ولاءً ووقوفاً خلف قيادتها هذه، خالقة الأزمات، فيقفل معمل الغاز، وتتجه السيارات سخرة لجمع الناس من البيوت ومن محال العمل للمشاركة، المدارس

تتمتع بعطلة تلقائية لثلاثين عطلة رسمية وأزمة مفتعلة أو ما يزيد على ذلك، الوكيل الذي يوزع نصف طبقة بيض شهرياً لكل أسرة على وفق البطاقة التموينية سيسألك أن تراجع على بيضك، فلا بد لكي تمنح بيضك أن يكون قد رآك بأم عينيه، وإلا سيرفع صوته عليك، وسيجلب لك الشبهات، فلا تذهب إلى هناك، ودع حصتك لمن (يستحق)! أذكر أني سمعته يقول لأحدهم : أنت لا تشارك في مسيرة ولا تحضر إلى ندوة ولا تجتمع، ولا تشارك في الممارسات التي تخص الدفاع المدني، فكيف تطالب بحصة، الآن عرفت الحزب ؟ انسحب الرجل واعتذر لمطالبته بحصته من البيض ليلاً من الرفيق البعثي، وأكد بأنه لن يفعلها ثانية، حين قال له الرفيق: قيل لي انك (تدردم) وتقول : إن البيض يذهب صناديق صناديق للمسؤولين! مصيبة اثر.. أعني أزمة اثر أزمة، وهو عمر من الأزمات المفتعلة!

الغـــدُ لَـــكَ

* ثمةَ فضاعات
لا أريدُ لها
أن تتكرر !!

إياك أن تخرج إلى الشارع،
الشارع ليس لك،
الشارع مصيدة وأداة للاختفاء،
كان أخي يمشي في الشارع فاختفى !
إن أكثر مَن في المقابر الجماعية كانوا يمشون في الشوارع فاختفوا !
لا تسمع مذياعاً أو تلفازا، إلا إذا عزمت على الجنون مثلي، أو فكرت به، بغير هذا ستعرض ذوقك وسمعك للعطب،
المذياع والتلفاز ليس لك،
إنهما للرئيس،
الشارع للرئيس،
ألا تتذكر معي أنهم كانوا يخلون الشارع من الناس والطيور والشجر حين يحضر ؟

الشعر والغناء ليس لك
هذه الأشياء للرئيس فقط،
بيتك باستطاعة الرئيس أن يهده عليك
بغمزة واحده من مخبر سري !

أذكر أني كنت إذا ما قلت مدينة الثورة، لأدل أحد أو أجيبه على سؤاله صحح لي أحدهم: قل مدينة صدام، وإذا قلت المستشفى قرب المكان الفلاني صحح لي أحدهم: قل مستشفى صدام، وإذا قلت القرنة، قال صدامية القرنة، وإذا الجسر فجسر صدام، وإذا المطار فمطار صدام وإذا الجامعة فجامعة صدام، وإذا شاءت الأقدار وحظيت حصتك التموينية بزيادة ٢٥ غرام عدس، فهي مكرمة صدام. أنت العراقي ليس لك شيئا من عراقك، حقك مسلوب، وتأخذ ما هو لك مكرمة.

الرئيس يفرض عليك كما تفرض السلع البائرة، في المذياع والتلفاز والأغاني، قبل رفع آذان الصلاة في الأوقات جميعها وبعده، أذن هما الجنون أو الاختفاء أوكلاهما معا: الرئيس لمن يشير بالسيف والبندقية والمسدس ؟

الرئيس يبدل ستائر نوافذ قصوره مرات في اليوم،
فلا تحزن لنوافذك بلا ستائر،
الرئيس يغير ملبسه مرات في اليوم،
فلا تشفق على بنطالك
إذا غيرت السنون لونه استعنت بوجهه الآخر،

أو أحلته إلى ابنك.
لك الجدار يسند ظهرك :
لك أنيتك وللرئيس آنيته الذهبية،
كل شيء للرئيس إلا الغد
فهو لك !.

الجوع مُخبر سري

* هو يطلب المنازلة
ويدفع الناس مرغمين إليها
أكان بوسعهم أن يسألوا :
لماذا ؟

لا أذكر أني فكرت في أيامي التي لم أرَ فيها حرب، في الكتابة عن الحرب، ولا في أيامي التي لم أكن فيها مع الاضطهاد والجوع وجها لوجه، في الكتابة عن الاضطهاد والجوع :

أرجو أن لا يفهم أن الحرب أصوات انفجارات، ودور مهدمة وقتلى، إن أردت التعرف على مأساة الحرب فانظر إلى مخلفاتها، إنني في أثناء الحرب الثماني سنوات لم أشعر بعظم كارثيتها حتى بعد انتهائها، كنت أشعر بها تضايق حريتي الشخصية وحسب، وتمنعني من رؤية زوجتي وطفلي وقتذاك.

مخلفات الحرب وضحت عندما ملت الزوجات انتظار أزواجهن الأسرى والمفقودين فصارت بعض العوائل تفقد أواصر تماسكها، ذلك أن النظام كان يقاضي أي فرد كان يتقاطع مع ذوي الأسرى والمفقودين والشهداء في عراكه حسب درجة القربى، وان كان الوالد أو الولد، وان كان هؤلاء على حق، لقد زرع العصيان في قلوب بعض النسوة الثكالى – وهو عصيان له ما يبرره نفسيا وسيكلوجياً – فانتقل هذا العصيان إلى بنيهن، فكثر قطاع الطرق والأشقياء والمغرر بهم فانفتحت لهم أبواب السجون، بدلاً من أن تمدَّ لهم يد المساعدة والعون

مخلفات الحرب تبدت في اليأس من الحياة وعدم الاطمئنان إلى الغد والمستقبل، لا سيما بعد حرب صدام الثانية مع الكويت و أميريكا، أنت إن بكيت ما فيه الكفاية، ستكون غير قادر على ذرف دمعة واحدة بعد ذلك على اعز أحبائك. وان ضحكت حتى دمعت عيناك، وآلمتك عضلات بطنك ستكون غير قادر على الضحك تحت تأثير أطرف النكات، ونحن حاربنا حتى مللنا الحروب، لا سيما أن الحروب التي خاضها صدام وزجنا فيها دونما غاية ولم تصل إلى أيما نتيجة، وكان من لا يقرأ الحياة برؤيا المستقبل ولا تشد أزره تجربة، ستفك أواصر علائقه مع الحياة وسيعيشها على مضض غير آسف على ما يجري وسيجري فما كان حرباً وما سيكون حرب، والإنسان عتلة من عتلات هذه الحرب، سيرمى بها إن عطبت وإن لم تعد

صالحة.
لقد فكرت بالكتابة عن الجوع عندما صرت وجهاً لوجه معه وأنا أعرف انه أقوى من الإنسان
فالنظام يناصر الجوع،
والسوق يناصر الجوع
وليس لك إلا نفسك.
المشكلة ليست في أنك لا تجد ما تأكله في العشاء، المشكلة عظيمة عندما لا يجد ما يأكله الصغار ليذهبوا إلى مدارسهم صباحا،
في عهد صدام شاعت سرقت اللفات بين تلاميذ المدارس،
أنا معلم وأحدثك عما رأيت، وأنت رب الأسرة لا تجد أجرة النقل إلى محل عملك سواء أكانت مدرسة أم قرية كمن يعمل مثلي مصلِّحاً جوالاً.
لم أفكر في الكتابة عن الجوع والحرب حتى هدداني في أبوتي ورجولتي وهيأتي أمام أطفالي وزوجتي والناس
الجوع محقق أمني
مخبر سري
منفذ إعدامات
الجوع صدام بعينه.
وكذا الحرب !

الغناء الحزين يصمت

* قد يكون ذلك
ولكن
يبقى الغناء
وسيلة للدفاع
عن الحياة

أذكر أني كنت اردد بعض الأغاني التي تصور حالة الاغتراب والوحدة التي أعيش، وليس ذلك بوازع من الغناء والطرب، إنما بوازع من التشابه بين حالة الداخل عندي، والمعنى الذي تأتي به هذه الأغاني مثل « موعود معايا للعذاب يا قلبي « أذكر أني كنت اردد هذه الكلمات على نحو استطيع به تخفيف بعض همي، وتذكر أن الكلمات كلها لا تعنيني، ما يعنيني كلام بعينه، جملة بعينها، كالجملة التي ذكرت، ومثل « غريبة الروح «، كنت انطق كلمة (غريبة) دفعة واحدة، لكنني كنت عندما انطق لفظة (الروح) أمد الراء والواو إلى أطول زمن موسيقي يعرفه المختصون، كنت اشعر أن هذه الكلمات تسد نقصاً تحسه روحي، كنت أردد أيضاً « طالت غيبتك يسمر علينه « مع أنني موقن كل اليقين أن مضطهداً وحيداً

مثلي أبعد ما يكون عن التفكير بشقراء أو سمراء ! كنت أحس أن ترديد هذه الكلمات من متطلبات المقاومة والصبر، وكان عندما يأخذ الألم مني مأخذاً أردد قولة صديق لي

« يا دموع القصائد

لقد نسيتنا المدينة التي أنجبتنا «

كنت أخرج إلى الشارع وأعود مردداً :

انتصف الليل.

وليس سوى خطواتي في الشارع المضطرب

وليس إلا هواجس تقودني إلى الدار.

لقد كانت حالة الاغتراب تتوشحني على الرغم من صخب الناس في الشوارع:

صخب يعلو كدخان

وبعيني غريب

أجوب شوارع المدينة !

وحيد أنا

كشارع بعد منتصف الليل.

العمر يضيع،

و سواي لا أحد يدري بأنه يضيع ! :

ضاع العمر مثل كد أجير

لأيام بلا أجر.

إنك إن سلكت طريقاً لمرات دون أن تفضي بك إلى غايتك،

ستحس ببعد المسافة من أول خطوة، وانه لمن المؤلم أن يحس المرء ببعد المسافة عند أول خطوة منها !
سنون والطريق ذاتها،
والنتائج ذاتها،
والألم والوحشة والاغتراب ذاتها،
لا الشوارع شوارع،
ولا الليل ليل
ولا الغناء غناء،
ولا النهار نهار،
لا المواسم مواسم،
ولا العمر عمر!
في نيسان ٢٠٠٣، بدأت الذاكرة تشطب بعض كلماتها الحزينة،
وبدأ الغناء الحزين يصمت !

النهـــار لـــكَ

* سأصدق
ذلك
كنت بين جدران غرفتك
تلوذ بك
وتمد سمعك إلى باب الدار

أما زال يفزعك قرع الباب ؟
أما زلت تدفع بابنك الصغير ليبلغ الطارق بأنك غير موجود
بينما تقف بجنبه تنظر من ثقب الباب؟
أما زال الليل صديقك ؟
تمارس فيه حرية المشي من باب الدار إلى آخر الشارع
أومن باب الدار إلى بيت صديقك
الذي يميز طرقات يدك على بابه
فينادي:
ها تعال !
كنتما تخرجان في الليل
وتقولان ها قد ناموا
وها هو الشارع لنا
أو تبقيان في الحديقة
تغيظان من يرقبكما
إذ ليس إلا الشعر والغناء
فما بالك حزين ؟
النهار لك
والباب ليست موصدة
إن يديك من دون قيد
تلمسهما واطمئن.

أنت الآن

*
.....
.....
.....
أنت الآن تخرج إلى آخر الشارع متى شئت،
لا يفزعك طرق الباب،
ولا تجلس في آخر غرفة من غرف الدار،
أنت الآن تكتب بعد منتصف الليل مختارا،
صياح الديكة لا يؤلمك
وصنبور الماء لا يشغلك.
هذه المرة لا تكتب تشتيتاً للأرق،
أو تعبيراً عن شعور بالبؤس، والضياع،
أنت الآن تكتب طلباً للراحة وتخفيفاً عن وطأة من كان يجثم على أنفاسك،
ويحيل بيتك إلى ثكنة
وقطرات الماء إلى أغانٍ مجّةٍ
وصياح الديكة إلى نوح ثكالى.
أنت الآن لا تحاصرك الشوارع

ولا تشعر بالاختناق حين تحدق بك الجدران،
بيتك الصغير يتسع،
وثمة من يسير بك إلى ذكرياتك،
فيستحيل صمتك صوتاً.
أنت الآن لا تصغي لأنين قدميك،
ولا لألم ظهرك
مع أنك عدت قبل قليل من إحدى قراك،
التي أبى أحد كلاب بيوتها أن تدخل الدار حتى ربطه ابن الجار، لكنك لا تدينه، وتدين كلاباً تنبحك ولا تنبح اللصوص، أنت تدين كلاباً كلما رأتك قالت هو هو – بالتحريك ضما وفتحاً – وتود لو تلاعب كلاب القرى هي تقول هو- بالفتح والسكون- وأنت تقول هو، تنقض عليها لعباً وتنقض عليك، حتى تمل الهو واللعب وتمل!
أنت الآن تسمع عزف روحك
فليس ما يفسد عليك ذلك، أنت الآن ترى تلك القرى أبهى وأسمى، وتحس طرقها الترابية تعبق بالبرد،
أنت الآن ترى النهر يمسك بيديك فتمضيان من قرية إلى قرية.

أنت إن تركت عدة تصليحك السفرية وذهبت إلى هناك، سوف لا تمنحك الطرق الترابية عبقها، ولا تخوض معك الكلاب (هواً) ولعباً.
لا بد لك وأنت تزور القرى أن تصطحب عدتك وابنك،
وأنت إن لم تفعل ذلك

سيغير الطين لونه بوجهك،
وستخذلك الجذوع التي كانت توصلك من الضفاف إلى الضفاف،
إن القرى تعرفك كما تعرفها.
أنت الآن تهم بالبكاء فلا تبك،
كانت الطرق الترابية،
وكان النهر وجذوع النخل لا يشون ببكائك،
وكنت حين تمضي مع النهر وتغني ألماً،
تعطي صبيك ظهرك،
أنت الآن تهم بالبكاء وقد قلت : إن الوقت ليس وقتاً للبكاء، أنت الآن تود أن تشتم وقد قلت : إنك لا تحب أن تشتم أحداً، فلا تناقض نفسك كما الآخرين.
أنت الآن تتوسد يدك ولا تغفو،
تستعذب هواء قراك
و صحوك بعد منتصف الليل،
أنت لم تخذل نفسك التي ما خذلتك،
ولا قدميك اللتين لم تسيرا بك إلى ما لا تريد،
كانتا تعرفان من الطرق اقصرها لكنك النحيل تحاورهما فيسمعانك:

الأقدام تحاور الدروب
والرأس مصغياً
ما لهذه الشوارع دونما مارة

ما لهذه المدينة دونما شوارع
جدران تندب جدراناً
الشوارع
المدينة

أمي وأبي ما لهما لم يتجاهلا تلك الليلة ؟

أنت كلٌّ مجتمع لم يخذلك سمع ولا بصر ولا قدمٍ، لقد كنت تراهن عليك حاسة حاسة، الآن عرفت لِمَ كنت تغيظهم، ولِمَ كانوا يحاولون استدراجك إلى الهاوية، كنت أحس بك ولا أفهمك تماماً. أعترف باني صرت مثلك، لا أميز بين نباح ونباح وحسب، ولا بين طريق وطريق لقد صرت أميز نفسي ما بين الأمس واليوم :

أمواج تأتي
وأمواج تروح
لكن النهر مطمئناً
يمضي
يحمل بياض الخبز
وجذوع النخل
إجلالا يقوم لك النخل
وتضحك لك المهاد
لك في النفوس ضفاف
ونسمة صيف

لك صبية تلهو
وزعيق يعوم
أتدري إلى أين تفضي
تلك الحقول ؟
فامض
امض
يلوحك النخل
وتبوحك أسرارها
القرويات
امض، امض، أغنية في الحياة.

هذا الكتاب

لا أدري حينها إلى أي جنس ينتمي، ولم اشغل بالي في ذلك، ولم أضع في حسباني إني سأنشره ذات يوم، لكنني بعد (أذكر أني) عرفت بأني أستطيع الامتداد، فلم تتح لي الظروف قبله أن أمتد، وأن أطلق لروحي فضاء تتمدد به، فان ما كان صغيرَ صغيرٍ، البيت صغير، والمدينة صغيرة، والعالم والأحلام صغيرة، ثم كيف لك أن تتمدد وتسترخي في أرض من عقارب.

إن الظروف لم تمنحني برهة من وقتها لأسأل نفسي ما يمكن أن أقدمه لها، بل أنستنيها، لا سيما أن الزوج وعيالها السبعة، وضعوني في موقف المطلوب، فكان علي أن أسأل عنهم قبل أن أسأل عني، ولا أظنني حتى بعد كتابتي (أذكر أني) قد برأت ذمتي أمامهم.

إن الكتاب محاولة لرد الاعتبار إلى النفس، التي عانت ما عانت، وعاشت سنوات من الاغتراب، وانكمشت أمام أقزام، أرادوا لها أن تتقزم، وهو كتاب لا أظنني الوحيد من بين العراقيين، الذي يستطيع كتابته ! فقد عانوا ما عانيت، ورأوا ما رأيت، وثكلوا (باختصار) أعمارهم وأعمار من أُعيق ومن أُسر ومن أُعدم، ومن فُقِدَ ومن أماتته الحروب.

هو كتاب كنت حين أحدث أصدقائي عنه، لا يحبذون أن أمضي في انجازه، فعندهم أن هذه المنطقة من الكتابة قد تؤدي بالكاتب إلى الانزلاق في هاوية المباشرة، فكيف له أن يجمع بين الحديث عن عمله

في القرى وهواجسه الإبداعية ؟ وكيف له أن يعبر عن تجربة بسيطة ومركبة التي قد يستحي من الحديث عنها – عدة سفرية، مصلِّح جوال، مخبرون سريون، كلاب تنبح، حمير تنهق.. الخ لكنها الذات جمعت شتات تلك المتناقضات، وأجازتها كتاباً أسمته (أذكر أني).

شعرنة السيرة في: أذكر أني

مالك مسلماوي

قد يؤدي فتح النص على ماضٍ موصوف الى تحميله مهمة مزدوجة، فإلى جانب استدعائه إبداعياً في التأسيس لتجربة شعورية معنية.. يعد التوثيق مطلباً ثقيلاً قد يتداخل فيه ما هو سائد ومعتاد ومستهلك، مع ما هو استثنائي ونادر وجدير بالتأمل.. وتتجلّى هذه الإشارة في أدب اليوميات والسير الذاتية المثقلة بالتفاصيل (الباهتة) الخالية من الإثارة والاستفزاز والعمق.. ومما يجب تأكيده : أن أهمية العمل لا تعتمد على استثنائية الواقعة الملتقطة بعناية من لدن الكاتب . ناثراً كان أو شاعراً . وحسب وإنما بمعالجتها إبداعياً، أي خلق ما تحمله من قدرة على تحريك وجدان المتلقي، وفكره.. وإمكانية استيعاب التجربة التي عاشها شعورياً ونفسياً، ولا يتحقق ذلك إلا إذا كان الكاتب له من (الذائقة) ما يؤهله لتحميل الواقع لغة الشعر.

وعلى ضوء ما تقدم يمكن قراءة كتاب ((اذكر أني)) للكاتب رشيد هارون والموصوف بعنوان رديف (نصوص سيرية) من منشورات

دار الأرقم للطباعة والنشر لسنة ٢٠٠٧ يضم الكتاب ١٤٦ صفحة من الحجم المتوسط. وقد قدم له الشاعر ناهض الخياط باقتضاب جاء فيه (لقد انبثق النص من تجربة حقيقية صادقة تنطوي على معاناة قهر وإعواز وحزن، ومواجهة يومية مع رموز النظام وممارساتهم الإرهابية ليل نهار.. ثم يقول : أن ما رأيته في النص يدفعني الى أن أسأل منظري الأدب وتقَدَته الى أي جنس ينتمي ؟ وما علاقته بما ينفثون علينا من مصطلحات الحداثة وما بعدها، عسى أن يجيبني أحد بعد قراءته لـ (أذكر أني).....

لقد حاول الكاتب تسويق مذكراته عن مرحلة محددة من تاريخ العراق المعاصر تركزت في عقد التسعينيات من القرن الراحل. التي شهدت تردياً مأساوياً على كافة الصعد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، نتيجة التخبط الارتجالي وفقدان الأمل في بلد أنهكته الحروب وسحقه الحصار الدولي فبات يعاني من الفقر والإحباط وتفشي الفساد من جهة وعنف السلطة من جهة أخرى .

رشيد هارون واحد من ملايين المعذبين والمقهورين والمجاهدين من اجل البقاء راح يبحث عن متنفس للحرية وعن مصدر لقوت عياله خارج أسوار المدن التي تحولت الى ثكنات عسكرية ومصائد موت للمعارضين المتهمين دوماً بالخيانة والعمالة.. رشيد هارون بات يكره المدينة المدججة بالسلاح، وأناشيد الحرب. المدينة التي فقد فيها حريته وقدرته على البقاء كإنسان، وإذا كان غيره قد استطاع أن يعبر الحدود

الى العالم الأوسع فأنه مارس فعلة الهروب اليومي الى القرى النائية تخلصاً من عيون السلطة (ذوي البزّات المدنية) الذين كان يجدهم في كل مكان يشهرون على الجميع فوهات بنادقهم.

ثم أنه سحق على هيبة مهنته في التعليم، واتخذ عن طريق الصدفة مهنة أخرى هي تصليح (الطباخات)، ثم راح يروي لنا معاناته اليومية وهو يتنقل في القرى مع ابنه تحت حرارة الشمس وعواصف التراب، ومشاكسة الأطفال، وتهديد الكلاب... ولكن القرى أيضاً فيها من الإيذاء والتعب والغربة ولكنها على كل حال . توفر قدراً من الأمان الذي يفتقده في المدينة :

((أن القرى تؤذيك دون أن تدري

وأن من في المدن يؤذيك بدراية، ولابد أن تميز بين هذا وذاك))

وهكذا فالأذى يلاحق الإنسان في كل مكان في الريف كما في المدن، ولكن أذى المدينة مقصود ومنظم وقد يصل الى حد الموت... وبإهداء جميل يلخص على لسان ابنه مدى المعاناة الكبيرة التي يواجهانها وهما غريبان في القرى تحت حر الظهيرة، ومراقبة حركة الكلاب :

((أبتي

نأت المدينة

فمن للغريبين في القرية النائية وحرّ الظهيرة ؟

ألقيت عصاي

فقد نام على العتبات النباح))

هكذا ومنذ البدء يتكشف ميل الكاتب الى (شعرنة) نصوصه فهو لا يريد أن يبتعد عن الشعر، لاعتقاده بأن الشعر هو الأقدر على الوصول والكشف وترجمة الألم... إن لم يصرح بذلك، ولكن القارئ لا تفوته محاولة الكاتب في مزاوجة بيّنة، تبلغ غايتها في بعض النصوص.. لذلك تراه في النص الأول يدعو الى الجنون، والشعر أقرب الى الجنون من غيره، أو هو ضرب من الجنون :

((أذكر أني فكرت بالجنون وسعيت إليه سعياً أرجو أنك
فكرت به مثلي.. إن لم تفكر بالجنون سأتلم لك وأقول أنك لا تشبهك!))

ووسط حياة قاسية لا يمكن للعقل أن يستوعبها أو يصل معها الى حل ما سوى أن يتنازل الإنسان عن عقله وتحسبه ليعيش حراً دون رابط أو مسؤولية، ليس هذا فحسب وإنما يؤكد دعوته لجنون جماعي، في عالم مجنون.. يتيح للإنسان ممارسة حريته بأي طريقة يراها، يشتم ويهزأ ويضحك...:

((أشتم من استحق الشتم
وأهزأ بمن يستحق الهزأ

لك أن تتصوريني أفني النهار ضحكاً وشتماً وهزءاً.. المجانين ليسوا أغبياء ولو كانوا كذلك لمل جنوا، لأن الشارع لي أنا المجنون ولك الأرصفة والأحياء المظلمة !... لابد أ تختار الطريق الذي يفضي بك إليك وان

كان الجنون !))

يظل رشيد قلقاً في محاولته العسيرة في (شعرنة) الواقع تشعرك بأنه ينفخ الطاقة الشعرية في جل نصوصه وقد نجح في محاولته في غير مكان فتجد كثافة الرؤية، وتلقائية التعبير في تراكيب بسيطة، تمتلئ بالإيحاء كما في ((الديك)):

((يصيح وحيداً
صوته يمضي كالموجة
لا يدري الى أين ....
وحيداً
وحيداً يصيح
ولصوت ديك واحد لا تطلع
الشمس...))

هنا تجد رابطاً ما بين صياح الديك وصياح (مصلّح الطباخات) المبدد في الفضاء وهو يروج لمهنته في القرى، وإذا كانت الشمس تصحو على أصوات الديكة فأن هذا الصوت المتوحد لا ينبئ بطلوع شمس الحرية التي ينتظرها رشيد هارون....

ويستمر رشيد هارون في السردية الشاعرية، وتستوقفك توهجات جميلة مليئة بالإحساس الإنساني وتناغمة مع تفاصيل الحياة اليومية. المشحونة بالترقب وهذا المقطع من نص (النهار لك) نموذج على ذلك :

((كنت بين جدران غرفتك
تلوذ بك
وتمد سمعك الى باب الدار، أما زال يفزعك قرع الباب ؟ أمازلت تدفع بابنك الصغير ليبلغ الطارق بأنك غير موجود ؟ بينما تقف بجانبه تنظر من ثقب الباب؟)
وغربة رشيد غربة قاسية شرسة كشراسة كلاب القرية وكقساوة رجال السلطة...غربة الإنسان في وطنه، وهو يعاني القمع والجوع والإذلال. فما له غير محاورة نفسه، والتنفيس عن سورات الألم التي تعتصرها.. في كل الأوقات لكن الظلام والعزلة تهيئ له قدراً من الشعور بالأمن والحرية....
ولذلك سمعناه يقول :
(النهار لك.. والباب ليست موصدة ! إن يديك من دون قيد تلمسهما واطمئن) ولكن الليل له يستتر بظلامه عن أعين السلطة التي تلاحقه وتسد عليه الطريق، يقبع في بيته الصغير، وهو يتلذذ بعزلته يقول في نص (أنت الآن) :
((أنت الآن تكتب بعد منتصف الليل مختاراً
صياح الديكة لا تؤلمك
وصنبور الماء لا يشغلك
هذه المرة لا تكتب شيئاً للأرق
أو تعبيراً عن شعور بالبؤس والضياع ، أنت الآن تكتب طلباً للراحة وتخفيفاً عن وطأة من كان يجثم على أنفاسك...))

والى جانب هذا النجاح هناك افتعال وإقحام، واعتقد إن الكاتب لو تأنى لأستطاع أن يجعل من جميع نصوصه ذا مستوى عالٍ من القيمة الجمالية.. ولكن إصراره على أكساء بعض نصوصه ثوب الشعر لا يجعل منها نصوصاً شعرية.. فتراه يكتب بأسطر متباينة الطول مما يعطيها هيئة القصيدة.. وبما أن منجزه يسير باتجاهين : سردي/ شعري كان الأولى به أن يضع السرد في محله والشعر في محله.. وكذلك فقد جاءت بعض النصوص تشكو فقراً فنياً:

((وقد كثر الجباة في المدن
ففي الطريق جباة
وفي دار الجباية جباة رسميون وغير رسميين
أذكر أني كنت حين أرزق بوليد يجبى مني
وحين أمرض أو يمرض يجبى منا...))

أو من المقطع التالي الخالي من الروح :

((تعلمت أن لا أشتم أحداً
لأنني لا أحب العراك
ولا أحبذه وسيلة بين الناس والدول))

ولا أعتقد أن الملاحظة السالفة تقلل من أهمية العمل التي توافر كثير من العناصر لجعله عملاً يستحق المتابعة كونه يؤسس لتجربة مغايرة بأسلوب بعيد عن التعقيد والانغلاق، ومفعم بالصدق والوعي والقدرة على توثيق الواقع السياسي والاجتماعي ببراعة فنية، ورؤى إنسانية غنية..

أخلص إلى أن التجربة تستحق الإشادة والاحتفاء متفقاً مع ما أورده من قدم لها، وعوداً إلى ما جاء في المقدمة، أقول :. علينا أن لا نرمي الأحجار في الظلام ونهاجم الحداثة وما بعدها فالجميع يسبحون في بحورها وينسجون على منوالها بمن فيهم صاحب المنجز ومن قدم له، لأن أبسط معاني الحداثة هو الخروج على الأطر الثابتة في الخطاب الأدبي مع وجود التباين النسبي في المعطيات الشكلية والفنية.